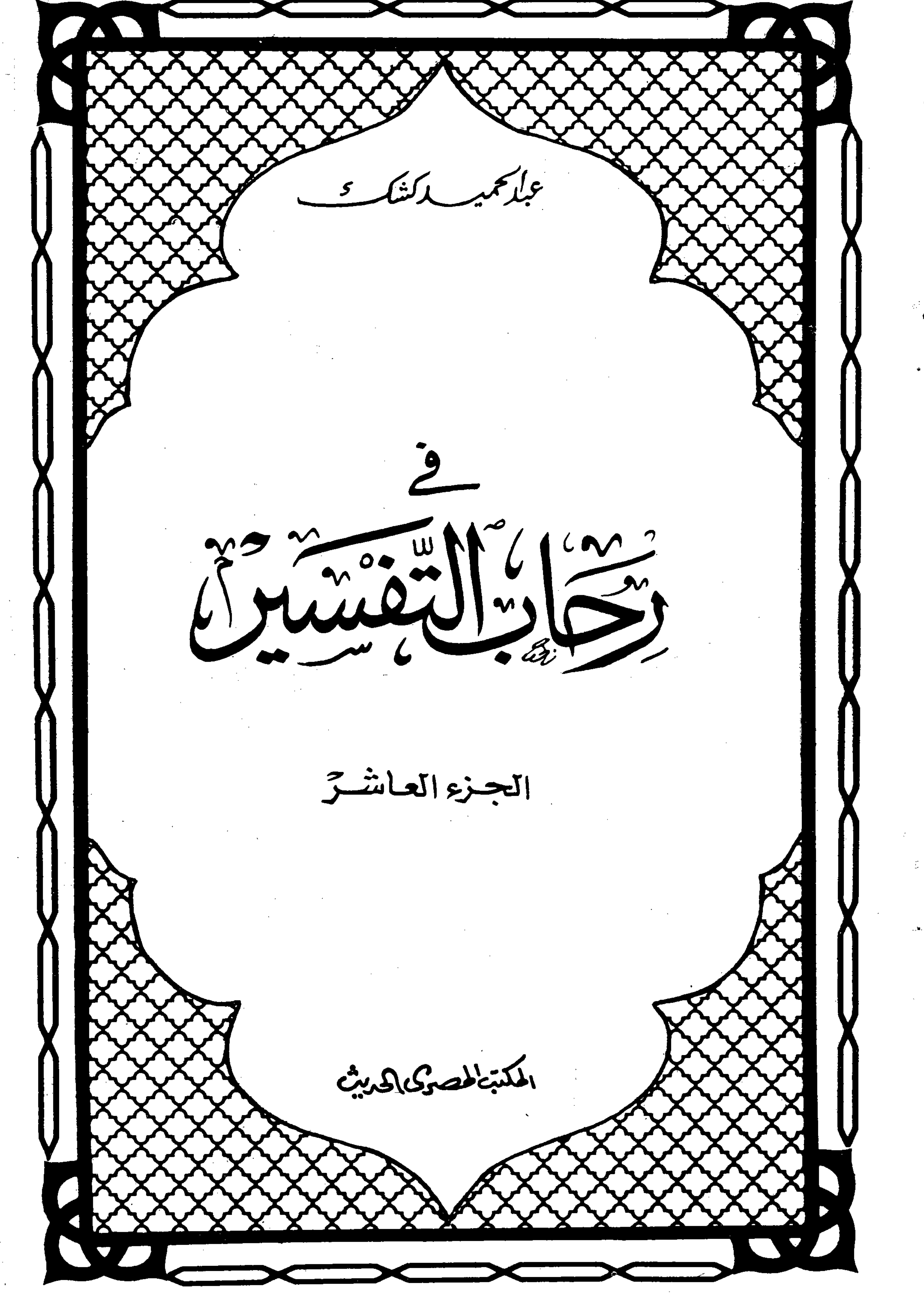

عبد الحميد كشك
في رحاب التفسير
الجزء العاشر
المكتب المصري الحديث

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقسيم الغنائم

*وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

المفردات : ﴿ **الغُنم والمغنم والغنيمة** ﴾ : ما يناله الإنسان ويظفر به بلا مقابل مادى وقولهم القرم بالغنم أى يقابل به . ﴿ **و الفىء** ﴾ : كل ما صار إلى المسلمين من أموال أهل الشرك بعد أن تضع الحرب أوزارها وتصير الدار دار إسلام وهو لكافة المسلمين وليس فيه الخمس . ﴿ **والنفل** ﴾ : ما يحصل للإنسان من الغنيمة قبل قسمتها .

لما أمر الله سبحانه بقتال الكفار المعتدين الذين كانوا يفتنون المسلمين عن دينهم حتى لا تكون فتنة ، ووعد المؤمنين بالنصر عليهم ، وكان ذلك مستبقا لأخذ الغنائم فيهم ، ناسب أن يذكر بعده ما يرضيه سبحانه فى قسمة الغنائم على الوجه الذى شرعه ، والجمهور على أن هذه الآية نزلت فى غزوة بدر ، وعلى أن ابتداء فرض قسمة الغنائم كان بها .

﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ .

أى واعلموا أيها المؤمنون أن كل ما غنمتموه من الكفار المحاربين فاجعلوا أولا خمسه لله تعالى ، ينفق فيما يرضيه من مصالح الدين العامة ، كالدعوة للإسلام ، وإقامة شعائره ، وعمارة الكعبة وكسوتها . ثم أعطوا الرسول منه كفايته لنفسه ونسائه مدة سنة ، ثم أعطوا منه ذوى القربى من أهله وعشيرته نسباً وولاء ، وقد خص الرسول ﷺ ذلك ببنى هاشم وبنى أخيه المطلب المسلمين ، دون بنى عبد شمس ونوفل ، ثم المحتاجين من سائر المسلمين وهم اليتامى والمساكين وابن السبيل .

روى البخارى عن مطعم بن جبير (من بنى نوفل) قال : (مشيت أنا وعثمان بن عفان (من بنى عبد شمس) إلى رسول الله ﷺ فقلنا يا رسول الله : أعطيت بنى المطلب وتركتنا ونحن وهم بمنزلة واحدة ، فقال رسول الله ﷺ : « إنما بنو المطلب وبنو هاشم شيء واحد »[1]) .

وسر هذا أن قريشا لما كتبت الصحيفة وأخرجت بنى هاشم من مكة وحصرتهم فى الشعب ، لحمايتهم له ﷺ ، دخل معهم فيه بنو المطلب ، ولم يدخل بنو عبد شمس ولا بنو نوفل ، إلى ما كان من عداوة بنى أمية بن عبد شمس لبنى هاشم فى الجاهلية والإسلام ، فقد ظل أبو سفيان يقاتل النبى ﷺ ويؤلب عليه المشركين وأهل الكتاب إلى أن أظفر الله رسوله ، ودانت له العرب بفتح مكة ، وكذلك بعد الإسلام خرج معاوية على علىّ وقاتله .

والحكمة فى تقسيم الخمس على هذا النحو ــ أن الدولة التى تدير سياسة الأمة لابد لها من المال لتستعين به على القيام بالمصالح العامة كشعائر الدين ، والدفاع عن الأمة ، وهو ما جعل الله فى الآية ، ثم نفقة رئيس حكومتها وهو سهم الرسول فيها ، ثم ما كان لأقوى عصبته وأخلصهم وأظهرهم تمثيلا لشرفه وكرامته ، وهو سهم ذوى القربى ، ثم ما يكون لذوى الحاجات من ضعفاء الأمة ، وهم الباقون .

ولا يزال هذا الاعتبار مراعى معمولا به فى كثير من الدول مع اختلاف شئون الاجتماع والمصالح العامة ، فالمال الذى يرصد للمصالح العامة يدخل فى موازين الوزارات المختلفة ما بين جهرية وسرية ، ولاسيما الأمور الحربية ، وكذلك راتب ممثل الدولة من ملك أو رئيس جمهورية ، منه ما هو خاص بشخصه ، ومنه ما هو لأسرته وعياله ، ومن موازين الدولة ما يبذل لإعانة الجماعات الخيرية والعلمية ونحوهما .

ولكن اليتامى والمساكين وابن السبيل لا تجعل لهم الدولة فى هذا العصر حقاً فى أموال الدولة ، وإن كان بعض الدول تعطيهم أموالاً من الأوقاف الخيرية التى تتولى أمر استغلالها ، وإنفاق ريعها على المستحقين له ، وبعضها تخصص إعانات للعمال المتعطلين فى وقت الحاجة .

وعن ابن عباس أنه قال : ﴿ **فإن لله خمسه** ﴾ مفتاح كلام أى أنه ذكر على سبيل التبرك ، وإنما أضافه سبحانه إلى نفسه لأنه هو الحاكم فيه ، فيقسمه كيف شاء ، وليس المراد منه أن لله سهماً مفردا ،

(١) أخرجه البخارى فى المناقب (٢) .

لأن ما فى السموات والأرض فهو لله ، وبهذا قال الحسن وقتادة وعطاء وإبراهيم النخعى فقد قالوا : سهم الله وسهم رسوله واحد ، وذكر الله للتعظيم .

﴿ **إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان** ﴾ .

أى إن كنتم آمنتم بما ذكر إيمان إذعان ، فاعلموا أن ما غنمتم من شىء قل أو كثر ، فأن لله خمسه لأنه هو مولاكم وناصركم ، وللرسول الذى هداكم به وفضلكم على غيركم ، واقطعوا الأطماع عنكم ، وارضوا بحكم الله فى الغنائم ، وبقسمة رسوله فيها .

ويوم الفرقان هو اليوم الذى فرق الله فيه بين الإيمان والكفر ، وهو يوم بدر الذى التقى فيه الجمعان جمع المؤمنين وجمع المشركين فى الحرب والنزال ، وقد كان ذلك لسبع عشرة خلت من شهر رمضان ، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ .

﴿ **والله على كل شىء قدير** ﴾ : ومن قدرته أن نصركم على قلتكم وجوعكم وضعفكم وبلوغ عدوكم ثلاثة أضعاف عددكم ، أو أكثر ، وأيد رسوله ، وأنجز وعده .

﴿ **إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى** ﴾ : العدوة مثلثة العين . جانب الوادى ، والدنيا مؤنث الأدنى ، وهو الأقرب ، والقصوى مؤنث الأقصى ، وهو الأبعد .

والمعنى – إن كنتم أمنتم بالله وبما أنزلنا على عبدنا فى ذلك اليوم ، فى الوقت الذى كنتم مرابطين فيه بأقرب الجانبين من الوادى إلى المدينة ، وفيه نزل المطر لا فى غيره ، والأعداء فى الجانب الأبعد عنها ولا ماء فيه ، وأرضه رخوة تسوخ فيها الأقدام .

﴿ **والركب أسفل منكم** ﴾ أى والعير التى خرج المسلمون للقائها فى مكان أسفل من مكانكم ، وهو ساحل البحر كما تقدم ، إذ كان أبو سفيان قادماً بها من الشام .

﴿ **ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد** ﴾ أى ولو تواعدتم أنتم وهم للقتال . وعلمتم ماهم ومالكم لاختلفتم فى الميعاد كراهة الحرب لقلتكم ، وعدم إعداد العدة لها ، وانحصار همكم فى العير وبأساً من الظفر بها ، ولأن غرض الأكثرين منهم كان إنقاذ العير دون القتال ، لأنهم كانوا يهابون قتال رسول الله ﷺ ، ولا يأمنون نصر الله له ، لأن كفر الكثيرين منهم به كان استكباراً أو عناداً لا اعتقاداً .

﴿ **ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولا** ﴾ أى ولكن تلاقيتم على غير موعد ولا رغبة فى القتال ، ليقضى الله أمرا كان فى علمه وحكمته أنه واقع لا محالة ، وهو القتال المفضى إلى خزيهم ونصركم عليهم ، وصدق وعده لرسوله ، وإظهار دينه على الدين كله . ولو كره المشركون .

﴿ **ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة** ﴾ البينة الحجة الظاهرة أى فعل ، ذلك ليترتب على قضاء هذا الأمر ، أن يهلك من الكفار من هلك عن حجة بينة مشاهدة بالبصر على حقيقة الإسلام

بإنجاز وعده لرسوله ومن معه من المؤمنين بحيث تنتفى الشبهة ولا يكون هناك مجال للاعتذار عند الله عن إجابة الدعوة ويعيش من يعيش من المؤمنين عن حجة شاهدها وعاينها فيزداد يقينا بالإيمان ونشاطاً فى الأعمال .

﴿ **وإن الله لسميع عليم** ﴾ لا يخفى عليه شىء من أقوال الكافرين والمؤمنين ولا من عقائدهم وأفعالهم فهو يسمع ما يقول كل فريق منهم من الأقوال الصادرة عن عقيدة والأعذار التى يعتذر بها عن تقصيره فى أعماله ويعلم ما يكنه من ذلك ومن غيره ويجازى كلا بحسب ما يسمع ويعلم .

والخلاصـــة :

إن غزوة بدر قامت بها الحجة البالغة للمؤمنين بنصرهم ، كما بشرهم النبى ﷺ ، وحجته البالغة على الكافرين بخذلانهم وانكسارهم ، كما أنذرهم الرسول ﷺ ، ولا مجال فى ذلك للمكابرة والتأويل .

﴿ **إذ يريكهم الله فى منامك قليلا** ﴾ أى أنه تعالى سميع لما يقول أصحابك ، عليم بما يضمرونه ، إذ يريك الله عدد عدوك وعددهم قليلا فى الرؤيا المنامية ، فتخبر بها المؤمنين وتطمئن قلوبهم وتقوى آمالهم بالنصر ، فيجترئون عليهم .

﴿ **ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر** ﴾ أى ولو أراك ربك عددك وعددهم كثيرا لفشل أصحابك ، وخافوا ، ولم يقدروا على حرب القوم ، ولوقع بينهم النزاع وتفرق الآراء فى أمر القتال إذ منهم القوى الإيمان والعزيمة فيطيع الله ورسوله ويقاتل ومنهم الضعيف الذى يثبط عن القتال بمثل الأعذار التى جادلوا بها الرسول ﷺ ، كما تقدم فى قوله ﴿ **يجادلونك فى الحق بعد ما تبين** ﴾ .

﴿ ولكن الله سلم ﴾ أى ولكن الله سلمكم من الفشل والتنازع وتفرق الآراء ، وما يعقب ذلك من الانكسار والخذلان .

﴿ **إنه عليم بذات الصدور** ﴾ .

أى إنه تعالى عليم بما تخفيه الصدور من شعور الجبن والجزع الذى تضيق به ، فتحجم عن القتال ، ومن شعور الإيمان والتوكل الذى يبعث فى النفس الطمأنينة والصبر ، فيحملها على الإقدام ، ويسخر لكل منهما الأسباب التى تفضى إلى ما يريده منها .

﴿ **وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولا** ﴾ .

الخطاب هنا للرسول ﷺ والمؤمنين أى وفى الوقت الذى يريكم الله الكافرين عند التلاقى معهم عددا قليلا ، بما أودع فى قلوبكم من الإيمان بوعد الله بنصركم ، وتثبيتكم بملائكته ، والاستهانة بهم ، ويقللكم فى أعينهم لقلتكم بالفعل ، ولما كان عندهم من عجب وغرور بأنفسهم ، حتى لقد قال أبو جهل : إنما أصحاب محمد أكلة جزور (أى لقلتهم يكفيهم جزور واحد فى اليوم) .

والخلاصـــــة

إنه فعل ذلك ليقدم كل منكم على قتال الآخر ، فهذا واثق بنفسه ، مدل ببأسه ، وهذا متكل على ربه ، واثق بوعده ، حتى إذا ما التقيتم ثبتكم وثبطهم ، ليقضى بنصركم عليهم أمراً كان فى علمه مفعولا ، وهو أن تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، ومن ثم هيأ الأسباب وقدرها تقديرا .

نصائح وتوجيهات

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾

بعد أن ذكر سبحانه نِعَمَهُ على رسوله وعلى المؤمنين يوم بدر قفى على ذلك بذكر أدبين عظيمين إذا التقوا بعدوهم :

١ — الثبات وتوطين النفس على اللقاء مع عدم التوانى والتكاسل .

٢ — ذكر الله كثيرا وهو ذكره بألسنتهم وقلوبهم ، تنبيها إلى أن الانسان يجب ألا يخلو قلبه من ذكره فى أشد الأوقات حرجاً ، وقد طلب إلينا الثبات ، والطاعة لله ورسوله ، حتى لا نفشل وتدول علينا الدولة .

قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا** ﴾ أى إذا لقيتم فئة من أعدائكم الكفار فاثبتوا لهم ، ولا تفروا أمامهم ، فإن الثبات قوة معنوية طالما كانت السبب فى النصر والغلب بين الأفراد والجيوش ، انظر إلى الرجلين الجلدين يتصارعان ، فيعيا كل منهما وتضعف قوته ، ويتوقع كل لحظة أن يقع صريعا ، ولكن قد يخطر له أن خصمه ربما وقع قبله فيثبت إلى اللحظة الأخيرة ، فيكون له الفلج والفوز على خصمه ، وهكذا فى الحروب ، فإن من أهم أسباب النصر فيها الثبات وعدم اليأس . بل الثبات نافع فى كل أعمال البشر ، فهو الوسيلة فى الفوز والنجاح فيها .

﴿ **واذكروا الله كثيرا** ﴾ أى وأكثروا من ذكر الله فى أثناء القتال فى قلوبكم ، بذكر قدرته ، ووعده بنصر رسله والمؤمنين ، ونصر كل من يتبع سنتهم ، بنصر دينه وإقامة سننه ، وبأن النصر بيده ومن عنده يؤتيه من يشاء ، وبألسنتكم بالتكبير ونحوه وبالدعاء والتضرع إليه ، مع اليقين بأنه لا يعجزه شىء .

﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ : أى إن الثبات وذكر الله هما وسيلتان من وسائل الفوز . ويعدان للفلاح فى القتال فى الدنيا وفى نيل الثواب فى الآخرة .

وفى ذلك إيماء إلى أنه يجب على العبد ألا يفتر عن ذكر الله أكثر ما يكون همًّا ، وأشغل ما يكون قلباً ، وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك ، وإن كانت متوزعة عن غيره .

﴿ **وأطيعوا الله ورسوله** ﴾ أى وأطيعوا الله فيما أمركم به من الأسباب الموجبة للفلاح فى القتال وفى غيره ، وأطيعوا رسوله كذلك فهو المبين لكلام ربه ، والمنفذ له بالقول والعمل والحكم ، وهو القائد الأعظم فى القتال ، فطاعته هى جماع النظام . والنظام ركن من أركان الظفر ، وهو المشارك لكم فى الرأى والتدبير والاستشارة فى الأمور .

﴿ **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** ﴾ أى ولا يكن منكم تنازع واختلاف فإن ذلك مدعاة للفشل والخيبة ، وذهاب القوة ، فيتغلب عليكم العدو .

وأصل الريح الهواء المتحرك ، ثم استعيرت للقوة والغلبة ، لأنه لا يوجد فى الأجسام ما هو أقوى منها ، فهى تهيج البحار ، وتقتلع الأشجار ، وتهدم الدور والقلاع ، ومن ثم يقال هبت رياح فلان إذا جرى أمره على ما يريد كما يقال : ركدت رياحه إذا ضعف أمره ، وولت دولته .

﴿ **واصبروا إن الله مع الصابرين** ﴾ أى واصبروا على الشدائد وعلى ما تلاقونه من بأس العدو واستعداده وكثرة عدده فالله مع الصابرين يمدهم بمعونته وتأييده ومن كان الله معيناً له فلا يغلبه غالب .

تحذير

وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

المفردات : ﴿ **الذين خرجوا** ﴾ : هم أهل مكة حين خرجوا لحماية العير والبطر : إظهار الفخر والاستعلاء بنعمة القوة أو الغنى أو الرياسة ، ويعرف ذلك فى الحركات المتكلفة ، والكلام الشاذ . ﴿ **والرئاء** ﴾ : أن يعمل المرء ما يحب أن يراه الناس منه ليثنوا عليه ويعجبوا به . ﴿ **وتراءت الفئتان** ﴾ : قربت كل منهما من الأخرى وصارت بحيث تراها وتعرف حالها . ﴿ **ونكص** ﴾ : رجع القهقرى وتولى إلى الوراء والمنافق من يظهر الإسلام ويسر الكفر والذين فى قلوبهم مرض : هم ضعاف الإيمان تملأ قلوبهم الشكوك والشبهات فتزلزل اعتقادهم حينا وتسكن حينا آخر . ﴿ **أدبارهم** ﴾ : أى ظهورهم وأقفيتهم . ﴿ **وعذاب الحريق** ﴾ عذاب النار بعد البعث . ﴿ **والدأب** ﴾ : العادة المستمرة .

بعد أن أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالثبات عند لقاء العدو ، وذكر الله كثيرا ، وطاعة الله ورسوله ، نهاهم عن التنازع ، لأنه يؤدى إلى الفشل والضعف ، وأمرهم بالصبر ، فإن الصبر عاقبته نصر ، والله يحب الصابرين .

بعد ذلك نهاهم الله جلت قدرته أن يكونوا مثل الكافرين الذين خرجوا من ديارهم بطراً وكبراً وافتخاراً ، يراءون الناس ، ويصدون عن سبيل الله ،ما فعلوا ذلك إلا لأن قلوبهم قد أصبحت خراباً عشش فيها الشيطان ، وتراكمت عليها الظلمات ، وذلك لأن الفرق شاسع بين الجماعة المؤمنة ، والجماعة الكافرة ، فالمؤمنون خرجوا من ديارهم لا يقصدون مغنما ولا عرضا قريباً ، إنما تجردوا لله ، وأخلصوا دينهم لله ، كما علمهم سيد الإنسانية محمد صلوات ربى وسلامه عليه فى قوله: « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » لقد شموا ريح الجنة وهم فى طريقهم إلى ساحات القتال حتى لقد كان الواحد منهم يقول لزوجته قبل خروجه مقاتلا : لقاؤنا فى الجنة إن شاء الله .

لقد جاء رجل إلى أبى عبيدة عامر بن الجراح وهو يقود المعارك فى بلاد الشام ، وسأله : ألك شيء تريد أن تبلغه إلى رسول الله ﷺ ؟ فقال له أبو عبيدة : كيف وقد لحق الرسول بالرفيق الأعلى ؟ قال الرجل : لقد عزمت على خوض المعركة . وقد سألت ربى أن يرزقنى الشهادة فقال له أبو عبيدة : أبلغ رسول الله منى السلام . ونزل الرجل المعركة ونال الشهادة ، لأنه صدق الله فصدقه الله وعده ، ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور * أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾[١] .

إن هؤلاء الذين استحقوا نصر الله عقدوا معه معاهدة صلح ، بين الله تعالى نصوصها فى قوله ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر و لله عاقبة الأمور ﴾[٢] .

---

(١) الآيات ٣٨ - ٤٠ من سورة الحج . (٢) الآية ٤١ من سورة الحج .

إن الله تعالى منحهم النفس والمال ، فلما باعوا النفوس والمال لله تعالى قبل الله منهم هذا البيع ، واشترى منهم أنفسهم وأموالهم ، وكان الثمن فى هذا العقد غالياً ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة .

لقد سجل الله هذا العقد فى ثلاث كتب مقدسة قال تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾[1] .

وقد ذكر الله تعالى لهذا العقد شروطاً لابد من توافرها لصحة العقد ونفاذه ، قال تعالى فى بيان تلك الشروط : ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾[2] .

تلك معالم الجهاد عند الجماعة المؤمنة .

أما جماعة الكفر فقوم غلاظ الأكباد ، جفاة الطباع ، قساة القلوب ، خرجوا بطراً أو أشراً وكبراً وصلفا وحمقاً وطيشاً ونزقاً وحمية الجاهلية ، قال تعالى لعباده المؤمنين ﴿ **ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط** ﴾ محيط بعلمه وقدرته وإرادته وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض ، إنه كان عليما قديرا . لقد قال أبو جهل يوم بدر فى صلف وتيه ، واللات والعزى لا نرجع حتى ننحر الجزور ونشرب الخمور ، وتغنى علينا القيان ، ونقتل محمداً وصحبه ، ويسمع بنا العرب . فكان المصير تشيب من هوله الولدان ، وتقشعر منه الأبدان ، قتل أبو جهل ، وألقى فى القليب مع سبعين من صناديد المشركين ، ونادى عليهم ناشر الهدى وواسع الندى صلوات ربى وسلامه عليه ، نادى عليهم : يا أبا جهل بن هشام ، يا أمية بن خلف ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة : لقد وجدت ما وعدنى ربى حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ قال جماعة من الصحابة : أتناديهم يا رسول الله وقد جيفوا ، قال الصادق المعصوم ، والله ما أنتم بأسمع لما أقوله منهم إنهم يسمعون ولكنهم لا يتكلمون [3] .

تباركت ربنا وتعاليت يامن قلت وقولك الحق «وقد خاب من افترى» وقلت وقولك الصدق ﴿ ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ﴾[4] .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله .

---

(١) الآية ١١١ من سورة التوبة .

(٢) الآية ١١٢ من سورة التوبة .

(٣) أخرجه مسلم فى الجنة (٧٧) . والنسائى فى الجنائز (١١٧) . والإمام أحمد فى (١ : ٧٢) وفى (٣ : ١٠٤ ، ١٧٢ ، ٢٢٠ ، ٢٦٣) وفى (٦٠ : ١٧٠ ، ٢٢٠ ، ٢٨٧) .

(٤) الآية ٨١ من سورة طه .

أنت الذى قاد الجيوش محطماً عهد الضلال وأدب السفهاء
وسموت بالبشر الذين تعلموا سنن الشريعة فارتقوا سعداء

﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾(١) .

وشتان بين قوم وليهم الرحمن ، وآخرين وليهم الشيطان ، لقد خرج الشيطان يوم بدر وزين لهم أعمالهم ، ومناهم الأماني الكاذبة وقال لهم : ﴿ **لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم** ﴾ وما بعدهم الشيطان إلا غروراً ، ولما نزلوا حومة الوغى ، وحمى الوطيس ، واحمرت الحدق ، وصمتت الألسنة ، ونطقت الأسنة ، وخطبت السيوف على منابر الرقاب ، وأقدمت الرماح على الخطط الصعاب ، ورخصت الأرواح فى أسواق الموت ، فلا ترى إلا رؤوساً تنثر ، ودماءاً تهدر ، لما كان ذلك كذلك ، ونزلت الملائكة يقودهم جبريل ، ورآه إبليس ولى الأدبار هارباً لا يلوى على شىء ، ورجع القهقرى فلما سئل قال : ﴿ **إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب** ﴾ .

وقد صور القرآن الكريم هذا الموقف أروع صورة بأبلغ بيان قال تعالى : ﴿ **وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب** ﴾ .

وهذه عادة الشيطان بعد أن يزين لابن آدم السوء فيراه حسناً ، يعلن براءته منه ، ويلبس ثياب الرهبان وقلبه قلب ذئب ضار غادر لئيم قال تعالى ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين ﴾(٢) وقال جل شأنه ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾(٣) .

فما موقف المنافقين ومرضى القلوب من الجماعة المجاهدة فى سبيل الله ، إنهم المرجفون فى الأرض ، المثيرون للفتن ، المروجون للشائعات والأضاليل والأباطيل ، لقد رموا المؤمنين بالغرور لقلة عددهم وعُددهم ، ونسوا أو تناسوا أنه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين وجهلوا أنه من يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ، عزيز لا يغلب ، حكيم تنزه عن العبث ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم * والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم ﴾(٤) .

(١) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم .
(٣) الآية ١٦ من سورة الحشر .
(٤) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة محمد .

من كان الله معه فمن عليه ؟ ومن وجد الله فماذا فقد ؟ ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾[١] .

﴿ إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ .

والنفاق مرض اجتماعى خطير ، والمنافقون فى كل زمان ومكان ، عالة على المجتمع فى السراء ، وسوس ينخر فى عظام الأمة حالة الضراء ، يلقاك أحدهم عناقاً ، ويقسم بالله إنه لا يطيق لك فراقا ، ملاك كريم ، فى مظهره شيطان رجيم فى مخبره ، يلقاك بوجه أبى ذر وقلب أبى لهب . ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام * وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾[٣] .

هؤلاء وأمثالهم لو تراهم فى سكرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم يضربون وجوههم وأدبارهم ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون * فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾[٤] وما أجل قوله تعالى ﴿ كلا إذا بلغت التراقى * وقيل من راق * وظن أنه الفراق * والتفت الساق بالساق * إلى ربك يومئذ المساق * فلا صدق ولا صلى * ولكن كذب وتولى * ثم ذهب إلى أهله يتمطى * أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى * أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾[٥] .

إن الملائكة تخبرهم بمصيرهم وهم فى غمرات الموت فيقولون لهم : اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق ، وكنتم عن آياته تستكبرون ، ويقولون لهم ذوقوا عذاب الحريق قال تعالى : ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾[٥] وقال عز من قائل : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾[٦] .

فاللهم ارزقنا قبل الموت توبة ، وعند الموت شهادة ، وبعد الموت جنة ونعيما ، وملكا كبيرا ، وارزقنا لذة النظر إلى وجهك الكريم ، يا حى يا قيوم ، ياذا الجلال والإكرام .

﴿ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ جاءت هذه الآية الكريمة بمثابة العلة للمعلول ، فما فعل الله تعالى بهم ما فعل إلا بسبب ما قدمته أيديهم من السوء والإثم والعدوان ، وكفى بالكفر إثما مبيناً ، وبهتاناً عظيماً

والله تعالى منزه عن الظلم ، ولا يحب الظالمين ، فالظلم مرتعه وخيم ، والظلم ظلمات يوم القيامة :

(١) الآية ١١ من سورة محمد . (٣) الآيات ٨٣ – ٨٧ من سورة الواقعة . (٥) الآية ٢٧ من سورة محمد .
(٢) الآيات ٢٠٤ – ٢٠٦ من سورة البقرة . (٤) الآيات ٢٦ – ٣٦ من سورة القيامة . (٦) الآية ٥٠ من سورة الأنفال .

[يا عبادى لقد حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرماً بينكم فلا تظالموا][(١)] .

وجل جلال الله إذ يقول ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[(٢)] وتبارك الله إذ يقول : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾[(٣)] وإذ يقول : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[(٤)] .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا ... فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

قوله تعالى ﴿ **كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوى شديد العقاب** ﴾ .

يخبر تعالى عن الكافرين الذين أعد الله لهم عذاب الحريق بأن شأنهم وعادتهم كعادة آل فرعون الذين أرسل الله إليهم موسى وهارون بالمعجزات الخارقة ، والآيات الباهرة ، التى قال الله تعالى فيها : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فسئل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورا * قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾[(٥)] .

قال جل شأنه ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر * كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾[(٦)] .

فهؤلاء الكافرن من قومك يا محمد شأنهم كشأن الكافرين من آل فرعون . لقد أخذناهم بذنوبهم كما أخذنا آل فرعون بذنوبهم . ﴿ أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر ﴾[(٧)] .

وما أجل قوله تعالى ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾[(٨)] قوله تعالى : ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم** ﴾ .

هذه سنة الله فى كونه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا ، وكان أمر الله قدراً مقدورا . لا ينزل بلاء إلا بذنب ، ولا يرفع إلا بتوبة ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم**

(١) أخرجه مسلم فى البر (٥٥) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٦٠) .
(٢) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .
(٣) الآية ٤٠ من سورة النساء .
(٤) الآية ٤٤ من سورة يونس .
(٥) الآيتان ١٠١ ، ١٠٢ من سورة الإسراء .
(٦) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة القمر .
(٧) الآية ٤٣ من سورة القمر .
(٨) الآيتان ٥١ ، ٥٢ من سورة الذاريات .

ويعفو عن كثير ﴾[١] .

إذا كنت فى نعمة فارعها ... فإن المعاصى تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الإله ... فإن الإله سريع النقم

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم * وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له ومالهم من دونه من وال ﴾[٢] ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾[٣] .

وفعل الله كله لحكمة بالغة فهو السميع لأقوال عباده العليم بذوات الصدور ، علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون وعلم مالا يكون لو كان كيف كان يكون .

قوله تعالى ﴿ **كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين** ﴾ .

فى هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى أن آل فرعون أضافوا إلى الكفر التكذيب بآيات الله ومعجزاته ، فإنهم لما كفروا بالله ربا كذبوا بآياته التى أجراها على أيدى أنبيائه ، فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ، وبين الله تعالى كيف أهلكهم ولماذا أهلكهم ، فقال ﴿ **وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين** ﴾ الظلم لا يدوم ، وإذا دام دمر ، ودولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة ، والحرام لا يدوم ، وإذ دام لا ينفع ﴿ فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بنى إسرائيل * فأتبعوهم مشرقين * فلما تراء الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معى ربى سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين * إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[٤] .

شر الدواب عند الله

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾

(١) الآية ٣٠ من سورة الشورى .
(٢) الآية ١١ من سورة الرعد .
(٣) الآية ٧ من سورة إبراهيم .
(٤) الآيات ٥٧ - ٦٨ من سورة الشعراء .

المفردات : ﴿ **الدابة** ﴾ : لفظ غلب استعماله فى ذوات الأربع ، وأصله كل مادب على وجه الأرض وهو المراد هنا . ﴿ **عند الله** ﴾ : أى فى حكمته وعلمه و ﴿ **الذين عاهدت منهم** ﴾ : هم طوائف من يهود المدينة . و ﴿ **ثقفه** ﴾ : أدركه وظفر به . ﴿ **فشرد بهم** ﴾ : أى نكل بهم تنكيلا يشرد غيرهم من ناقضى العهد . ﴿ **من خلفهم** ﴾ : هم كفار مكة وأعوانهم من مشركى القبائل الموالية لهم ، ﴿ **والنبذ** ﴾ : الطرح . ﴿ **على سواء** ﴾ : أى على طريق واضح لاخداع فيه ولا خيانة ولا ظلم . ﴿ **سبقوا** ﴾ : أى أفلتوا من الظفر بهم . ﴿ **لا يعجزون** ﴾ : أى لا يجدون الله عاجزاً عن إدراكهم ، بل سيجزيهم على كفرهم .

بعد أن بين حال مشركى قريش فى قتالهم له ببدر – قفى على ذلك بذكر حال فريق آخر من الكفار الذين عادوا النبى ﷺ ، وقاتلوهم وهم اليهود الذين كانوا فى بلاد الحجاز .

قال سعيد بن جبير : نزلت هذه الآيات فى ستة رهط من اليهود منهم ابن تابوت .

وقال مجاهد : نزلت فى يهود المدينة ، وكان زعيمهم الطاغوت كعب بن الأشرف ، وهو فيهم كأبى جهل فى مشركى مكة .

ثم ذكر سبحانه ما يجب أن يعمل مع أمثالهم من الخونة ، وبين أن الرسول آمن من عاقبة كيدهم ومكرهم .

﴿ **إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون * الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون** ﴾ أى إن شر ما يدب على وجه الأرض فى حكم الله وعدله هم الكافرون الذين اجتمعت فيهم صفتان :

١ – **الإصرار على الكفروالرسوخ فيه** : بحيث لا يرجى إيمان جملتهم ، أو إيمان جمهورهم ، لأنهم إما رؤساء حاسدون للرسول ﷺ . معاندون له ، جاحدون بآياته المؤيدة لرسالته على علم منهم ، وفيهم يقول سبحانه وتعالى ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾[1] وإما مقلدون جامدون على التقليد لا ينظرون فى الدلائل والآيات . وقد لقبهم الله بالدواب وهو اللفظ الذى غلب استعماله فى ذوات الأربع ، ولإفادة أنهم ليسوا من شرار البشر فقط ، بل هم أضل من العجماوات ، لأن لها منافع وهؤلاء لا خير فيهم ولا نفع لغيرهم منهم كما قال تعالى فى أمثالهم ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ .[2]

٢ – **نقض العهد** ، وقد كان النبى ﷺ عقد مع يهود المدينة عقب هجرته إليهم عهداً أقرهم فيه على دينهم ، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم ، فنقض كل منهم عهده .

روى عن ابن عباس أنهم بنو قريظة ، نقضوا عهد رسول الله ﷺ ، وأعانوا عليه بالسلاح فى يوم

(١) الآية ١٤٦ من سورة البقرة ، والآية ٢٠ من سورة الأنعام . (٢) الآية ٤٤ من سورة الفرقان .

بدر ثم قالوا : نسينا وأخطأنا ، فعاهدهم الثانية فنقضوا العهد ، ومالأوا الكفار على رسول الله ﷺ يوم الخندق ، وركب زعيمهم كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم على محاربة النبى ﷺ . وقوله ﴿ **وهم لا يتقون** ﴾ : أى لا يتقون الله فى نقض العهد ولا فيما قد يترتب عليه من قتالهم والظفر بهم .

وبعد أن بين سبحانه أنهم قد تكرر منهم نقض العهد - أردف ذلك ذكر ما يجب أن يعاملوا به فقال : ﴿ **فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم** ﴾ أى إنك إن تدرك هؤلاء الناقضين لعهدهم وتظفر بهم فى الحرب - فنكل بهم أشد التنكيل حتى يكون ذلك سببا لشرود من وراءهم من الأعداء وتفرقهم ، فيكون مثلهم مثل الإبل الشاردة النَّدّة عن أمكنتها .

وإنما أمر الله رسوله ﷺ بالإثخان فى هؤلاء الأعداء الذين تكررت مسالمته لهم ، وتجديده لعهدهم بعد نقضه ، لئلا ينخدع مرة أخرى بكذبهم ، لما جبل عليه من الرحمة وحب السلم واعتبار الحرب ضرورة تترك إذا زال سببها ، كما قال تعالى : ﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها** ﴾ وهم قد أوهموه المرة أنهم يرغبون فى السلم ، واعتذروا عن نقضهم العهد . وكانوا فى ذلك مخادعين .

﴿ **لعلهم يذكرون** ﴾ أى لعل من خلفهم من الأعداء يذكرون النكال فيمنعهم ذلك من نقض العهد ومن القتال .

روى البخارى ومسلم أن النبى ﷺ خطب فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو فقال (أيها الناس لا تمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ثم قال - اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم)[١] .

وفى ذلك إيماء إلى شيئين :

١ - أن الحرب ليست محبوبة عند الله ولا عند رسوله ، وإنما هى ضرورة يراد بها منع البغى والعدوان وإعلاء كلمة الحق ودحض الباطل : ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾[٢] .

٢ - أن استعمال القسوة مع الناقضين للعهد والبادئين بالحرب والتنكيل بهم لتشريد من وراءهم أمر لابد منه للعظة والإعتبار ، حتى لا يعودوا إلى مثلها هم ولا غيرهم ، ولا يزال الأمر كذلك فى هذا العصر ، وإن كانوا يريدون به الانتقام وشفاء ما فى الصدور من الأحقاد والتمتع بالمغانم من مال وعقار .

وبعد أن ذكر حكم ناقضى العهد حين سنوح الفرصة قفى على ذلك بحكم من لا ثقة بعهودهم فقال :

﴿ **وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء** ﴾ أى وإن توقعت من قوم معاهدين خيانة ونكثا للعهد بوجود أمارات ظاهرة وقرائن تنذر بها ، فاقطع عليهم طريق الخيانة قبل وقوعها ، بأن تنبذ

(١) أخرجه البخارى فى الجهاد (٢٢ ، ١١٢ ، ١٥٦) . ومسلم فى الجهاد (٢٠) وفى الإمارة (١٤٦) . وأبو داود فى الجهاد (٨٩) . والترمذى فى فضائل الجهاد (٢٣) . والإمام أحمد فى (٤ : ٣٥٤ ، ٣٩٦ ، ٤١١) .

(٢) الآية ١٧ من سورة الرعد .

إليهم عهدهم ، وتنذرهم بأنك غير مقيد به ، ولا تهتم بأمرهم بطريق واضح لا خداع فيه ولا استخفاء .

والحكمة فى هذا أن الإسلام لا يبيح الخيانة مطلقا .

وخلاصة ذلك : لا تحاربهم قبل أن تعلمهم أنك قد فسخت العهد الذى بينك وبينهم حتى تكون أنت وهم فى العلم بنقض العهد سواء فلا يتوهموا أنك نقضت العهد بنصب الحرب عليهم .

﴿ **إن الله لا يحب الخائنين** ﴾ أى إن الخيانة مبغوضة بجميع ضروبها ولا وسيلة لاتقاء ضررها من الكفار إذا ظهرت أماراتها إلا بنبذ عهدهم جهرة . روى البيهقى أن النبى ﷺ قال : (ثلاثة المسلم والكافر فيهن سواء – من عاهدته فوف بعهده مسلما كان أو كافراً ، فإنما العهد لله ، ومن كانت بينك وبينه رحم فصلها مسلما كان أو كافرا ، ومن ائتمنك على أمانة فأداها إليه مسلماً كان أو كافراً) .

وبعد هذا أنذر أولئك الخائنين ما سيحل بهم من عقاب فقال : ﴿ **ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا** ﴾ أى ولا يظنن الذين كفروا أنهم سبقونا ونجوا من عاقبة خيانتهم وشرهم ، ونحو الآية قوله ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون ﴾[1] .

﴿ **إنهم لا يعجزون** ﴾ أى إنهم لا يعجزون الله تعالى ولا يفوتونه بمكرهم وخيانتهم ، بل هو سيجزيهم ، ويمكن منهم فى الدنيا بتسليط رسوله والمؤمنين عليهم ، وإذاقتهم عاقبة كيدهم ، والآية بمعنى قوله تعالى ﴿ واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين ﴾[2] .

وخلاصة ذلك قطع أطماعهم فى الانتفاع بهذا النبذ والغلبة على المؤمنين .

وفى الآية إيماء إلى أن ما أوجبه الإسلام من المحافظة على العهود مع الأعداء المخالفين فى الدين ، وما حرمه من الخيانة فيها ، لم يكن عن ضعف ولا عن عجز ، بل عن قوة وتأييد إلهى ، فقد نصر الله رسوله والمؤمنين على اليهود الخائنين الناقضين لعهودهم ، وأجلى من أبقاه السيف منهم من جوار معقل الإسلام (شبه جزيرة العرب) .

إعداد القوة

وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) * وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ

(١) الآية ٤ من سورة العنكبوت .
(٢) الآية ٢ من سورة التوبة .

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾

المفردات : ﴿ **الإعداد** ﴾ : تهيئة الشيء للمستقبل . ﴿ **والرباط والمربط** ﴾ : الحبل الذى تربط به الدابة ، ورباط الخيل حبسها واقتناؤها . ﴿ **والإرهاب والترهيب** ﴾ : الإيقاع فى الرهبة وهى الخوف المقترن بالاضطراب . ﴿ **وجنح للشىء وإليه** ﴾ أى مال يقال جنحت الشمس للغروب أى مالت إلى جانب الغرب الذى تغيب فى أفقه . ﴿ **والسلم** ﴾ : بفتح السين وكسرها والسلام : الصلح وضد الحرب والإسلام دين السلم والسلام كما قال ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ﴾[1]. ﴿ **وحسبك الله** ﴾ : أى كافيك وناصرك عليهم .

كأن سائلا قال : ما جزاء هؤلاء الخائنين الذين كلما عاهدوا عهداً نقضوه وصارت الخيانة ديدنهم وعادتهم ؟ ﴿ الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة ﴾[2] ما جزاء هؤلاء ؟ وماذا نصنع بهم ؟

فكان الجواب ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ .

روى مسلم عن عقبة بن عامر ان سمع النبى ﷺ وقد تلا هذه الآية يقول : (ألا إن القوة الرمى)[3] قالها ثلاثا .

وهذا الحديث الشريف يعتبر من دلائل النبوة ، فإن الحرب تختلف فى أدواتها من زمان إلى زمان ، ومن عصر إلى عصر ، ومن مصر إلى مصر ، فجاء حديثه ﷺ إشراقة نبوية تدل على أن هذه القوة التى فسرها بالرمى صالحة لكل زمان ، فقد يكون الرمى بالمدفعية باختلاف أنواعها ، كما يكون بقاذفات القنابل والدبابات مهما تطاول الزمان وانفسح المكان .

وفى قوله جل شأنه ﴿ **ما استطعتم** ﴾ دليل على أن الجماعة المؤمنة يجب أن تبذل أقصى جهدها ، وتستفرغ ما فى وسعها فى سبيل قوتها ومناعتها ، فليس السلام فى الإسلام سلاماً ذليلا ، إنما هو سلام عزيز كريم ، تحميه القوة ، ولا يمكن أن يقوم الحق وحده بلا قوة .

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا ... بقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة ... غزوت بالسيف بعد الغزو بالقلم
والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا ... فالحرب أجدى على الدنيا من السلم
فالشر إن تلقه بالخير ضقت به ... ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم

(١) الآية ٢٠٨ من سورة البقرة . (٢) الآية ٥٦ من سورة الأنفال .

(٣) أخرجه مسلم فى الإمارة (١٦٧) . وأبو داود فى الجهاد (١٤ ، ٢٣) . والترمذى فى تفسير (سورة ٨ : ٥) . وابن ماجه فى الجهاد (١٩) . والإمام أحمد فى (٤ : ١٥٧) .

وجل جلال الله إذ يقول ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾(١) .

فالعبد يقرع بالعصا والحر تكفيه المقالة ، وإذا كانوا يقولون القتل أنفى للقتل ، فإنا نقول : الاستعداد للحرب أنفى للحرب .

وما استعمل الإسلام السيف إلا للقضاء على السيف .

كذلك أمر الله تعالى أن نعد الرباط لحماية الثغور ، وصيانة الحدود ، والرباط فى سبيل الله له أجر جزيل عند الله ، ومازال للخيل دور عظيم فى ذلك الرباط ، كل هذا لإرهاب العدو وإيقاع الخوف فى نفسه والاضطراب فى فؤاده ، والرعب فى قلبه .

أما حقيقة الأمر فبيد الله وحده قال تعالى : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاءً حسنا إن الله سميع عليم * ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾(٢) .

فإعداد القوة والرباط على الحدود فيه إرهاب وأخذ بالأسباب ، أما الفاعل الحقيقى فهو الله وحده ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾(٣) .

﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾(٤) . ﴿ فهزموهم بإذن الله ﴾(٥) . ﴿ ذلك ولو يشاء الله لا نتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم * يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم * والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم ﴾(٦) .

إنكم بهذه القوة وهذا الرباط ترهبون عدو الله وعدوكم ، فتأمل معى هذا التعبير القرآنى الرائع ، كيف جعل من العدو الواحد عدوين حتى لا يستهين المسلمون بأمره ، فهو عدو الله العلى القدير ، وعداوته بكم مستمدة من عداوته لله ، وهل الإيمان إلا الحب فى الله ، والبغض فى الله . كما قال تعالى فى شأن فرعون ﴿ يأخذه عدو لى وعدو له ﴾(٧) .

كذلك ترهبون آخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، فسواء كان العدو من اليهود الخائنين ، أو من أهل الشرك الجاحدين ، أو من الوثنيين أو المثلثين أو غير ذلك من الملل والنحل ، فإن الكفر كله ملة واحدة ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير ﴾(١) .

(١) الآية ٢٥ من سورة الحديد .
(٢) الآية ١٧ من سورة الأنفال .
(٣) الآية ١١ من سورة محمد .
(٤) الآية ٢٤٩ من سورة البقرة .
(٥) الآية ٢٥١ من سورة البقرة .
(٦) الآيات ٤ – ٨ من سورة محمد .
(٧) الآية ٣٩ من سورة طه .

ولما كان إعداد القوة يلزمه إنفاق المال لشراء السلاح وغير ذلك ، فقد قرن الله تعالى إنفاق المال بإعداد القوة والرباط ، فقال ﴿ **وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون** ﴾ . كما قال جل شأنه ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾[٢] .

وكما قال سبحانه ﴿ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ﴾[٣] .

وكما قال تبارك اسمه ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ﴾[٤] .

فيا جماعة المؤمنين اصطلحوا مع الله ، وأخلصوا دينكم لله واستيقظوا ، لأعداء الله ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون** ﴾ .

قوله تعالى ﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم** ﴾ .

أى إذا مال العدو للسلم ، والمسلمون فى موقع العزة وهم الغالبون ولم يفقدوا موضع قدم من أرض الإسلام ، إن كان ذلك كذلك فالسلام هنا عزيز وكريم ، وسياسة الإسلام الخارجية تقوم على السلام والحرب ، استثناء ودواء لداء استعصى علاجه ، ويرحم الله أمير الشعراء إذ يقول فى أمير الأنبياء :

الحرب فى حق لديك شريعة	ومن السموم الناقعات دواء
داويت متئداً وداووا طفرة	وأخف من بعض الدواء الداء
والبر عندك ذمة وفريضة	لا منّة ممنونة وجباء
يا من له الأخلاق ما تهوى العلا	منها وما يتعشق الكبراء
زانتك فى الخلق العظيم شمائل	يغرى بهن ويولع الكرماء
فإذا سخوت بلغت بالجود المدى	وفعلت مالا تفعل الأنواء
وإذا رحمت فأنت أم أو أب	هذان فى الدنيا هما الرحماء
وإذا عفوت فقادراً ومقدراً	لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته	فجميع عهدك ذمة ووفاء
وإذا غضبت فإنما هى غضبة	للحق لا ضغنٌ ولا شحناء

إن السلام فى الإسلام مسلح وعزيز ، ويوم يجنح العدو للسلام وهو مغتصب لموضع قدم فى أرض

---

(١) الآية ١٢٠ من سورة البقرة .
(٢) الآية ١١١ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٢٠ من سورة التوبة .
(٤) الآية ١٠ من سورة الصف .

الإسلام فإن الإسلام ينهى عن هذا السلام ، قال تعالى ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾[١] .

أما إذا استوفى السلام شروطه ، وكانت يد المسلمين هى العليا فاجنح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم .

﴿ **وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله** ﴾ وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً ، فمن توكل على السميع العليم لايخيب سعيه ، ولا تزل قدمه ، ولا يضل سؤله ومن كان الله حسبه فلن يخدعه أحد ، لأنه لا يخدع ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فمن وجد الله فماذا فقد ، ومن كان الله معه فمن عليه ، وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض ، إنه كان عليما قديرا . [يا عبادى إنكم لن تملكوا ضرى فتضرونى ولن تملكوا نفعى فتنفعونى][٢] .

إن هذا الإله القادر هو الذى أيدك بنصره والمؤمنين ، وألف بين قلوبهم أى بالإيمان والصدق واليقين والصبر ، لا لمنفعة ولا مغنم ولا عرض ، وإنما بالحب الصادق والوفاء الكريم ، والمال لا يشترى الوفاء ، ولا يقوى على استغلاله ، قال ابن عباس : (إن الرحم لتقطع وإن النعمة لتكفر وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء ثم قرأ ﴿ **لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم**) .

لقد كانوا على قلب رجل واحد اعتصموا بحبل الله جميعا فلم يتفرقوا ، وأنعم الله عليهم بنعمة الأخوة فأصبحوا إخوانا ، فأطبوا المريض بدوائهم ، وأمنوا الخائف فى رجائهم ، وقرأوا على الدنيا كتاب جهادهم ، صمت أذن الدنيا إن لم تسمع لهم ، ما منهم من أحد فى ميادين القتال إلا ويتمنى أن يموت قبل صاحبه ، لقد اتخذوا الإيثار خلقاً ، ونبذوا الأثرة ، وتلك هى الأخوة فى الله .

إن أخــاك الحق من كان معك ... ومـــن يضر نفسه لينفـــعك
ومـن إذا ريب الزمـــان صدعك ... شتت فيك شملـــه ليجمـــعك

فاستحقوا بذلك هذا الوسام الرفيع فى قول الله تعالى ﴿ **لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم** ﴾ . وهل يقوى على ذلك التأليف إلا العزيز الذى لا يغلب ، الحكيم الذى تنزه عن العبث ، فيا من ألفت بين قلوبهم ألف بين قلوبنا ، ووحدنا صفاً وهدفاً .

التحريض على القتال

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟

(١) الآية ٣٥ من سورة محمد .

(٢) أخرجه مسلم فى البر (٥٥) .

أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

المفردات : ﴿ **حسبك** ﴾ : أى كافيك ما يهمك . ﴿ **والتحريض** ﴾ : الحث على الشيء . ﴿ **لا يفقهون** ﴾ : أى لا يدركون حكمة الحرب وما يقصد بها من سعادة فى الدنيا والآخرة . ﴿ **والضعف** ﴾ : (بالفتح والضم) يشمل المادى والمعنوى وقيل هو بالضم ما يكون فى البدن وبالفتح لما يكون فى الرأى والعقل والنفس .

بعد أن أمر الله رسوله بالجنوح للسلم إذا جنح لها الأعداء ، وربما كان جنوحهم لها مظنه الخداع والمكر ووعده أن يكفيه أمرهم إذا أرادوا التوسل بالصلح إلى الحرب ، وضروب الإيذاء والشر ، وامتَّن عليه بتأييده له بنصره ، وبالمؤمنين إذ سخرهم له وألف بين قلوبهم باتباعه ، قفى على ذلك بوعده بكفايته له ولهؤلاء المؤمنين الذين ألف قلوبهم فى حالى الحرب والسلم ، هذا تقدمة لأمره بتحريضهم على القتال حين الحاجة إليه . كما إذا بدأ العدو بالحرب أو نقض العهد أو خان فى الصلح .

﴿ **يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين** ﴾ أى أن الله تعالى كاف لك كل ما يهمك من أمر الأعداء وغيرهم ، وكاف لمن أيدك من المؤمنين ، ونحو الآية قوله ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾[1] وقوله ﴿ قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾[2] .

وإذا كان دأب المؤمنين أن يقولوا « حسبنا الله ونعم الوكيل » فأجدر بأنبيائه أن يكونوا أكمل توحيدا وتوكلا عليه من غيرهم ، ولا سيما خاتم أنبيائهم . والمراد بالمؤمنين جماعتهم من المهاجرين والأنصار ، ولاسيما من شهد منهم بدرا .

﴿ **يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال** ﴾ أى حرض المؤمنين على القتال ورغبهم فيه ، لدفع عدوان الكفار من إعلاء كلمة الحق والعدل وأهلهما على كلمة الباطل والظلم وأنصارهما إذ ذاك من ضرورات الاجتماع البشرى ، وسنة التنازع فى الحياة والسيادة .

والخلاصـــة :

حثهم على مايقيهم أن يكون حرضاً أو يكونوا من الهالكين ، بعدوان الكافرين عليهم وظلمهم إياهم إذا رأوهم ضعفاء مستسلمين .

(١) الآية ١٧٣ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٣٨ من سورة الزمر .

﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا ﴾ .

أى إن يوجد منكم عشرون صابرون يغلبوا بتأثير إيمانهم وصبرهم وفقههم مائتين من الكافرين الذين جردوا من هذه الصفات الثلاث ، وهذا عبرة منه تعالى وبشارة ، بأن الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكافرين ، بعون الله وتأييده .

والخلاصـــة :

ليصبرن الواحد لعشرة ، فجماعة المؤمنين الصابرين ترجح جماعة الكافرين بهذه النسبة العشرية ، سواء قلوا أو كثروا ، بحيث يؤمرون بقتالهم وعدم الفرار منهم ، إذا بدأوهم بالقتال .

﴿ ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ أى أنتم تغلبونهم وهم بهذه النسبة،بسبب أنهم قوم لا يفقهون ما تفقهون من حكمة الحرب وما يراد بها من مرضاة الله عز وجل فى إقامة سننه العادلة ، وإصلاح حال عباده بالعقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة ، ومن وجوب مراعاة أحكامه وسننه بإعداد كل ما يستطاع من قوة ، ومن كون غاية القتال عند المؤمنين إحدى الحسنيين النصر والغنيمة الدنيوية ، أو الشهادة والسعادة الأخروية .

وحالهم يخالف حالكم فى كل ما تقدم ، ولاسيما منكرى البعث والجزاء منهم ، كمشركى العرب فى ذلك العصر ، واليهود الذين أعمتهم المطامع المادية ، وحب الشهوات ، فهم أحرص على الحياة منكم لعدم اعتقادهم بسعادة أخروية ، إلى أن أهل الكتاب يظنون أنهم يحصلون عليها بنسبهم وشفاعة أنبيائهم .

وفى الآية إشارة إلى أن من شأن المؤمنين أن يكونوا أعلم من الكافرين بكل ما يتعلق بحياة البشر ، وارتقاء الأمم ، ومن ثم كانت المائة منهم دون العشرة من المؤمنين الصابرين .

وهكذا كان المسلمون فى العصور الأولى حين كانوا يعملون بهداية دينهم ، وكانوا بها أرباب ملك واسع ، وعز وجاه ، ودانت لهم الشعوب الكثيرة ، حتى إذا ما تركوا هذه الهداية زال مجدهم وسؤددهم ،وذهبت ريحهم ، ونزع منهم أكثر ذلك الملك ، وبعد أن بين الله تعالى المرتبة العليا التى ينبغى أن تكون للمؤمنين قفى على ذلك ببيان ما دونها من مرتبة الضعف فقال : **﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ﴾** .

روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾ شق ذلك على المسلمين حين فرض عليهم ألا يفر الواحد من العشرة فجاء التخفيف فقال ﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ﴾ قال : فلما

خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم ﴾[1] .

وبهذا الحديث استدل العلماء على وجوب ثبات الواحد المسلم إذا قاوم رجلين من الكفار ، وتحريم الفرار عليه منهما ، سواء طلباه أو طلبهما ، وسواء وقع ذلك وهو واقف فى الصف مع العسكر ، أو لم يكن هناك عسكر .

والخلاصـــة :

إن أقل حال للمؤمنين مع الكفار فى القتال أن ترجح المائة منهم على المائتين ، والألف على الألفين ، وإن هذه رخصة خاصة بحال الضعف كما كان الحال فى الوقت الذى نزلت فيه هذه الآيات ، وهو وقت غزوة بدر ، حين كان المؤمنون لا يجدون ما يكفيهم من القوت ، ولم يكن لديهم إلا فرس واحد ، وأنهم خرجوا بقصد لقاء العير غير مستعدين للحرب ، وكانوا أقل من ثلث المشركين الكاملى الأهبة والعُدة .

ولما كملت للمؤمنين القوة كانوا يقاتلون عشرة أضعافهم أو أكثر ، وينتصرون عليهم وما تم لهم فتح ممالك الفرس والروم وغيرهم إلا بذلك .

وكان أصحاب رسول الله ﷺ فى عهده ومن بعده القدوة فى ذلك ، فقد كان الجيش الذى أرسل إلى مؤتة من مشارف الشام للقصاص ممن قتلوا رسوله الحارث بن عمير الأزدى ثلاثة آلاف ، وكان الجيش الذى قاتلهم من الروم ومنتصرة العرب مائة وخمسين ألفا .

وقوله : بإذن الله : أى بمعونته وتوفيقه وبمعنى الآية قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾[1] .

وفى ذلك إيماء إلى أن من سنن الله فى الغلب أن يكون للصابرين على غيرهم ، وفى هذا تحذير للمؤمنين أن يغتروا بدينهم ، ويظنوا أن الإيمان وحده يقتضى النصر والغلب وإن لم يقترن بالصفات اللازمة لكماله ، ومن أهمها وأعظمها الصبر والعلم بحقائق الأمور ، ومعرفة سنن الله فى خلقه .

توجيه ربانى

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

(١) أخرجه البخارى فى الجهاد (٥٩) وفى تفسير (سورة ٨ : ٧) وسورة (٢٢ : ١) . وأخرجه أبو داود وفى الجهاد (٩٦) . والترمذى فى تفسير (سورة ٤ : ٢٤) وسورة (٦ : ٤) . والنسائى فى الوصايا (١١) وفى الخيل (١٤) . والإمام أحمد فى (٢ : ٣٢٩ ، ٣٩١) وفى (٣ : ١٠٣) .

المفردات : ﴿ **الأسرى** ﴾ : واحدهم أسير ، وهو من الأسر وهو الشد بالإسار أى القيد من الجلد ، وكان من يؤخذ من العسكر فى الحرب يشد لئلا يهرب ، ثم صار يطلق على أخيذ الحرب وإن لم يشد . ﴿ **والإثخان** ﴾ : فى كل شيء: قوته وشدته ، يقال قد أثخنه المرض إذا اشتدت قوته عليه ، وكذلك أثخنته الجراح ، والثخانة الغلظ ، فكل شيء غليظ فهو ثخين . ﴿ **والعرض** ﴾ : ما يعرض ولا يدوم سمى به حطام الدنيا لأنه حديث قليل اللبث . ﴿ **ومسكم** ﴾ : أى أصابكم . ﴿ **وفيما أخذتم** ﴾ : أى لأجل ما أخذتم من الفداء .

بعد أن ذكر سبحانه ما ينبغى أن يكون عليه المؤمنون فى حال الغزو والجهاد أمام أعدائهم الكافرين من الصبر والثبات على القتال ، ومن تفضيل السلم إذا جنح العدو إليها ، قفى على ذلك بذكر أحكام الأسرى ، لأن أمورهم يفصل فيها بعد القتال غالبا كما وقع فى وقعة بدر كما يقع فى كل زمان .

روى ابن أبى شيبة والترمذى وابن مردويه والبيهقى عن ابن مسعود قال : « لما كان يوم بدر جيء بالأسارى ، فقال أبو بكر رضى الله عنه يا رسول الله قومك وأصلك ، استتبهم لعل الله أن يتوب عليهم . وقال عمر : يا رسول الله كذبوك وأخرجوك وقاتلوك ، قدمهم فاضرب أعناقهم ، وقال عبد الله بن رواحه رضى الله عنه أنت فى واد كثير الحطب فأضرمه عليهم ناراً فقال العباس رضى الله عنه وهو يسمع ما يقول : أقطعت رحمك ؟ فرحل النبى ﷺ ولم يرد عليهم شيئا ، فقال أناس : يأخذ بقول أبى بكر ، وقال أناس : يأخذ بقول عمر ، وقال أناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحه ، فخرج رسول الله ﷺ فقال : إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن وإن الله سبحانه ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة ، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال ﴿ فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾ ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام قال : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾[٢] ، ومثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام إذ قال ﴿ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾[٣] وإن مثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام قال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾[٤] أنتم عالة فلا يفلتن أحد إلا بفداء ، أو ضرب عنق — فقال عبد الله رضى الله عنه يا رسول الله ﷺ إلا سهيل بن بيضاء فإنى سمعته يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله ﷺ فما رأيتنى فى يوم أخوف من أن تقع على الحجارة منى فى ذلك اليوم ، حتى قال رسول الله ﷺ إلا سهيل بن بيضاء فأنزل الله تعالى ﴿ **ما كان لنبى أن يكون له أسرى . إلى آخر الآيتين** ﴾ » .

وروى عن أحمد من حديث ابن عباس قال : « لما أسروا الأسارى (يعنى يوم بدر) قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر : ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر يا رسول الله هم بنوالعم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم للإسلام فقال

(١) الآية ٣٦ من سورة إبراهيم .
(٢) الآية ١١٨ من سورة المائدة .
(٣) الآية ٨٨ من سورة يونس .
(٤) الآية ٢٦ من سورة نوح .

رسول الله ﷺ : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قال لا والله لا أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكنى أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم ، فتمكن عليا من عقيل (أخيه) فيضرب عنقه ، وتمكننى من فلان - نسيب لعمر - فأضرب عنقه ، ومكن فلانا من فلان قرابته ، فإن هؤلاء أئمة الكفر و صناديده فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت . فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان قلت يا رسول الله أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاءاً بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ، فقال رسول الله ﷺ : أبكى للذى عرض علىّ أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة - شجرة قريبة منه وأنزل الله عز وجل ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ﴾[1] .

وفى هذا الحديث تصريح بأن الذين طلبوا منه ﷺ اختيار الفداء كثيرون ، وإنما ذكر فى أكثر الروايات أبو بكر رضى الله عنه ، لأنه أول من أشار بذلك ولأنه أكبرهم مقاماً . وروى ابن المنذر عن قتادة قال : أراد أصحاب محمد الفداء يوم بدر ففادوهم بأربعة آلاف ، أربعة آلاف .

﴿ **ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض** ﴾ أى ما كان من شأن نبى من الأنبياء ولا من سنته فى الحرب أن يكون له أسرى يتردد أمره فيهم بين المن والفداء ، إلا بعد أن يثخن فى الأرض ، أى إلا بعد أن يعظم شأنه فيها ، ويتم له الغلب والقوة بقتل أعدائه ، لأن الملك والدولة إنما تقوى وتشتد بالقتال والقتل كما قال :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

إلا أن كثرة القتل توجد الرعب وشدة المهابة ، وذلك يمنع من الجرأة والإقدام على مالا ينبغى ، ومن ثم أمر الله به .

وخلاصة ذلك : أن اتخاذ الأسرى إنما يكون خيراً ورحمة ومصلحة للبشر ، إذا كان الظهور والغلب لأهل الحق والعدل - ففى المعركة الواحدة بإثخانهم لأعدائهم من المشركين والمعتدين ، وفى الحالة العامة التى تعم كل معركة وكل قتال ، فبإثخانهم فى الأرض بالقوة العامة والسلطان الذى يرهب الأعداء .

﴿ **تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة** ﴾ أى تريدون عرض الدنيا الفانى الزائل ، وهو المال تأخذونه من الأسرى فداء لهم ، والله يريد لكم ثواب الآخرة الباقى بما يشرعه لكم من الأحكام الموصلة إليه ، ما دمتم تعملون بها ، ويدخل فى ذلك الاستعداد للقتال بقدر الاستطاعة إرادة الإثخان فى الأرض والسيادة فيها لإعلاء كلمة الحق وإقامة العدل .

وفى ذلك إنكار لعمل وقع من جمهور المؤمنين على خلاف تلك القاعدة التى تقتضيها الحكمة والرحمة ، وما كان للنبى ﷺ إقرار مثل هذا العمل ، ومن ثم عاتبهم الله على ما فعلوا بعد بيان سنة النبيين ، كما عاتب رسوله أيضا .

(١) أخرجه مسلم فى الجهاد (٥٨) . والإمام أحمد فى (١ : ٣١ ، ٣٣) .

﴿ **والله عزيز حكيم** ﴾ ومن ثم يجعل أولياءه يغلبون أعداءه ، ويتمكنون منهم قتلا وأسراً ، ويطلق لهم أخذ الفداء ، ولكنه يؤخر ذلك إلى أن يكثروا ويعزوا ، ونحو الآية قوله : ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾[١] .

ولا تتم مهمة العزة إلا بتقديم الإثخان فى الأرض والسيادة فيها على المنافع العرضية ، بمثل فداء الأسرى من المشركين وهم فى عنفوان قوتهم وكثرتهم .

وعلى هذه القاعدة جرت الدول العسكرية فى العصر الحديث ، فإذا رأت من البلاد التى تحتلها أدنى بادرة من المقاومة بالقوة نكلت بأهلها أشد التنكيل ، فتخرب البلاد ، وتقتل الأبرياء مع المشاغبين ، بل لا تتعفف من قتل النساء والأطفال نيران المدافع ، وقذائف الطائرات والدبابات .

ولكن الإسلام – وهو دين الرحمة والعدل – لا يبيح شيئاً من ذلك .

﴿ **لولا كتاب من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم** ﴾ أى ولولا كتاب من الله سبق فى علمه الأزلى ألا يعذبكم والرسول فيكم ، وأنتم تستغفرونه من ذنوبكم – لمسكم بسبب ما أخذتم من الفداء عذاب عظيم .

أخرج ابن المنذر عن نافع عن ابن عمر قال : « اختلف الناس فى أسارى بدر ، فاستشار النبى ﷺ أبا بكر وعمر ، فقال أبو بكر فادهم ، وقال عمر اقتلهم ، فقال قائل : أرادوا قتل الرسول ﷺ وهدم الإسلام ويأمره أبو بكر بالفداء ، وقال قائل : لو كان فيهم أبو عمر أو أخوه ما أقر بقتلهم . فأخذ رسول الله ﷺ بقول أبى بكر ففاداهم فنزل ﴿ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ فقال رسول الله « إن كاد ليمسنا فى خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم ، ولو نزل العذاب ما أفلت إلا عمر » .

وبعد أن عاتبهم على أخذ الفداء أباح لهم أكل ما أخذوه ، وَعَدَّهُ من جملة الغنائم التى أباحوها فى أول السورة فقال : ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا ﴾[٢] أى فكلوا مما غنمتم من الفدية حال كونه حلالا بإحلاله لكم طيبا فى نفسه لا خبث فيه مما حرم لذاته كالدم ولحم الخنزير .

﴿ **واتقوا الله** ﴾ فى أن تعودوا إلى أكل شيء من أموال الناس كفاراً كانوا أو مؤمنين من قبل أن يحله لكم ربكم .

﴿ **إن الله غفور رحيم** ﴾ أى إنه غفور لذنبكم بأخذ الفداء وإيثار جمهوركم لعرض الدنيا على ما يقتضيه إيثار الآخرة من طلب الإثخان أو لإعزاز الحق وأهله بإذلال الشرك وكبت حزبه ، رحيم بكم إذ أباح لكم ما أخذتم وأباح لكم الانتفاع به .

وخلاصة ما تقدم – إنه ليس من سنة الأنبياء ولا مما ينبغى لأحد منهم أن يكون له أسرى يفاديهم

(١) الآية ٦٩ من سورة الأنفال .   (٢) الآية ٨ من سورة المنافقون .

أو يمن عليهم إلا بعد أن يكون له الغلب والسلطان على أعدائه وأعداء الله الكافرين ، لئلا يفضى أخذه فداء الأسرى إلى ضعف المؤمنين وقوة أعدائهم وجرأتهم عليهم ، وما فعله المؤمنون من مفاداة أسرى بدر بالمال كان ذنباً سببه إرادة جمهورهم عرض الحياة الدنيا قبل الإثخان الذى تقتضيه الحكمة بإعلاء كلمة الله تعالى ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، ولولا كتاب من الله سبق من عدم عتابهم على ذنب أخذ الفداء قبل إذنه تعالى وعلى خلاف سنته – لمسهم عذاب عظيم فى أخذهم ذلك ، وإنه أحل لهم ما أخذوا وغفر لهم ذنبهم بأخذه قبل إحلاله لهم .

رحمة الله الواسعة

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

لما أخذ الرسول ﷺ الفداء من الأسرى شق عليهم أخذ أموالهم ، فأنزل الله هذه الآية استمالة لهم وترغيبا فى الإسلام ، ببيان ما فيه من خيرى الدنيا والآخرة ، وتهديداً وإنذاراً لهم ببقائهم على الكفر ، وخيانته ﷺ ، وبشارة للنبى ﷺ بحسن العاقبة والظفر له ، ولمن تبعه من المؤمنين .

روى أن الآية نزلت فى العباس وعقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث ، وكان العباس أسيراً يوم بدر ومعه عشرون أوقية من الذهب أخرجها ليطعم الناس ، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا الطعام لأهل بدر ، فلم تبلغه النوبة حتى أسر ، فقال العباس : كنت مسلماً إلا أنهم أكرهونى ، فقال النبى ﷺ : إن يكن ما تذكره حقاً فالله يجزيك ، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، قال العباس : فكلمت رسول الله أن يرد ذلك الذهب على فقال : أما شىء خرجت لتستعين به علينا فلا ، قال : وكلفنى الرسول فداء ابن أخى عقيل بن أبى طالب عشرين أوقية ، وفداء نوفل بن الحارث ، فقال العباس : تركتنى يا محمد أتكفف قريشاً ، فقال رسول الله ﷺ : أين الذهب الذى دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها : لا أدرى ما يصيبنى ؟ فإن حدث بى حادث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل فقال العباس : وما يدريك ؟ قال أخبرنى ربى ، قال فأنا أشهد أنك صادق ، وأن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله ، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله ، ولقد دفعته إليها فى سواد الليل ، ولقد كنت مرتاباً فى أمرك فأما إذ أخبرتنى بذلك فلا ريب . قال العباس : فأبدلنى الله خيرا من ذلك ، لى الآن عشرون عبداً ، وإن أدناهم ليضرب فى عشرين ألفا ، وأعطانى زمزم وما أحب أن لى بها جميع أموال مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربى .

﴿ يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ﴾ .

أى قل للذين فى أيديكم من الأسرى الذين أخذتم منهم الفداء : إن كان الله تعالى يعلم أن فى قلوبكم الآن إيماناً أو سيظهر فى حينه - كما يدعى بعضكم - يعطكم إذ تسلمون ما هو خير لكم مما أخذه المؤمنون منكم من الفداء بما تشاركونهم فى الغنائم وغيرها من النعم التى وعد المؤمنون بها . روى أبو الشيخ عن ابن عباس : أن العباس وأصحابه قالوا للنبى ﷺ : آمنا بما جئت به ونشهد أنك رسول الله فنزل ﴿ **إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً** ﴾ الآية .

﴿ **ويغفر لكم والله غفور رحيم** ﴾ أى ويغفر لكم ما كان من الشرك وما استتبعه من السيئات والأوزار ، والله غفور لمن تاب من كفره وذنوبه ، رحيم بالمؤمنين ، فيشملهم بعنايته وتوفيقه ، ويعدهم للسعادة فى الدنيا والآخرة . وفى ذلك من الحض على الإسلام والدعوة إليه مالا يخفى .

﴿ **وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل** ﴾ .

أى وإن يريدوا خيانتك بإظهار الميل إلى الإسلام والرغبة عن قتال المسلمين ، فلا تخف مما عسى أن يكون من خيانتهم وعودتهم إلى القتال ، فإنهم قد خانوا الله من قبل ، فنقضوا الميثاق الذى أخذه على البشر بما أقامه على وحدانيته من الدلائل العقلية والكونية ، وبما آتاهم من العقل الذى يتدبرون به سنن الله فى خلقه .

﴿ **فأمكن منهم** ﴾ يقال مكنه من الشيء وأمكنه منه : أى ممكنك أنت وصحبك منهم بنصرك عليهم ببدر ، مع التفاوت العظيم بين قوتك وقوتهم ، وعددك وعددهم ، وهكذا سيمكنك ممن يخونونك من بعد .

﴿ **والله عليم حكيم** ﴾ : فهو يعلم ما ينتوونه وما يستحقونه من عقاب ، حكيم سيفعل ما يفعل بحسب ما تقتضيه حكمته البالغة ، فينصر المؤمنين ويظهرهم على الكافرين .

وفى الآية من العبر :

(١) إنه يجب على المؤمنين ترغيب الأسرى فى الإيمان ، وإنذارهم عاقبة الخيانة إذا ثبتوا على الكفر وعادوا إلى البغى والعدوان .

(٢) إن فيها بشارة للمؤمنين باستمرار النصر وحسن العاقبة فى كل قتال يقع بينهم وبين المشركين ، ماداموا محافظين على أسباب النصر المادية والمعنوية التى علمت مما تقدم . روى البخارى عن أنس « أن رجالا من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فى ترك فداء عمه العباس رضى الله عنه وكان فى أسرى المشركين يوم بدر فقالوا : ائذن لنا فنترك لابن أختنا العباس فداءه (كانت جدته أنصارية) فقال ﷺ : والله لا تذرون منه درهما » .

وقد كان فداء الأسير أربعين أوقيه ذهباً ، فجعل على العباس مائة أوقية وعلى عقيل ثمانين ، فقال له العباس : أللقرابة صنعت هذا ؟ قال : فأنزل الله تعالى ﴿ **يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم** ﴾ الآية فقال العباس (بعد إسلامه) وددت لو

كان أخذ منى أضعافها لقوله تعالى ﴿ **يؤتكم خيراً مما أخذ منكم** ﴾ .

وبعد أن ذكر تلك القواعد الخاصة بالحرب والسلم ، وما يجب أن يعمل مع الأسرى ، ختم السورة بولاية المؤمنين بعضهم لبعض بمقتضى الإيمان والهجرة وما يلزم ذلك . وولاية الكافرين بعضهم لبعض ، ثم أمر بالمحافظة على العهود والمواثيق مع الكفار ما دام العهد محفوظاً غير منبوذ ولا منكوث فقال :

الإيمان والهجرة والجهاد

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

قسم الله المؤمنين أربعة أقسام ، وبين حكم كل منها ومنزلته من بينها :

(١) المهاجرون الأولون أصحاب الهجرة الأولى قبل غزوة بدر إلى صلح الحديبية .

(٢) الأنصار الذين كانوا بالمدينة وآووا النبى ﷺ والمهاجرين عند هجرتهم إليهم .

(٣) المؤمنون الذين لم يهاجروا .

(٤) المؤمنون الذين هاجروا بعد صلح الحديبية .

١ ـ ﴿ **إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله** ﴾ .

أى هؤلاء الكملة هم المؤمنون الذين هجروا أوطانهم فراراً بدينهم من فتنة المشركين ، إرضاءاً لربهم ، ونصرا لرسوله ﷺ ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله : أى بذلوا الجهد بقدر الوسع ، واقتحموا المشاق . أما ما كان من بذل الأموال فهو قسمان :

(١) ما ينفق فى التعاون والهجرة والدفاع عن دين الله ونصر دينه وحماية رسوله .

(ب) ما يكون بسخاء الأنفس بترك ما تركوه فى أوطانهم عند خروجهم منها . وما كان من بذل الأنفس فهو أيضا ضربان :

(ا) قتال الأعداء وعدم المبالاة بكثرة عَدَدهم وعُددهم .

(ب) ما يكون قبل القتال من احتمال المشاق ومغالبة الشدائد والصبر على الاضطهاد والهجرة من البلاد ، وما يصحب ذلك من سغب وتعب ونحو ذلك .

٢ـ ﴿ **والذين آووا ونصروا** ﴾ أى والذين آووا الرسول ومن هاجر من أصحابه ونصروهم وأمنوهم من المخاوف ، فقد كانت يثرب ملجأ المهاجرين ، شاركهم أهلها فى أموالهم وآثروهم على أنفسهم وقاتلوا من قاتلهم وعادوا من عاداهم ومن جراء هذا جعل الله حكمهم حكم المهاجرين فى قوله :

﴿ **أولئك بعضهم أولياء بعض** ﴾ أى يتولى بعضهم من أمر الآخرين ما يتولونه من أمر أنفسهم حين الحاجة إلى التعاون والتناصر فى القتال وما يتعلق به من الغنائم لأن حقوقهم ومرافقهم مشتركة ، ويجب عليهم كفاية المحتاج وإغاثة المضطر منهم .

٣ ــ ﴿ **والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا** ﴾ الولاية بفتح الواو وكسرها ، وقيل هى بالفتح خاصة بالنصر والمعونة والنسب والدين ، وبالكسر فى الإمارة وتولى الأمور العامة ، لأنها من قبيل الصناعات والحرف ، أى أن المؤمنين المقيمين فى أرض المشركين وتحت سلطانهم وحكمهم ودارهم دار حرب وشرك لا يثبت لهم شىء من ولاية المؤمنين الذين فى دار الإسلام ، إذ لا سبيل إلى نصر أولئك لهم . أما من أسره الكفار من دار الإسلام فله حكم أهل هذه الدار ، ويجب على المسلمين السعى فى فكاكهم بقدر ما يستطيعون من الحول والقوة ، بل يجب بذل هذه الحماية لأهل الذمة أيضا .

﴿ **وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق** ﴾ .

أى إنه لا ولاية لكم عليهم إلا إذا قاتلهم الكفار أو اضطهدوهم لأجل دينهم وطلبوا نصركم عليهم ، فعليكم أن تساعدوهم بشرط أن يكون الكفار حربيين لا عهد بينكم وبينهم ، أما إن كانوا معاهدين فيجب الوفاء بعهدهم ولا تباح خيانتهم وغدرهم بنقض العهد والمواثيق ﴿ **والله بما تعملون بصير** ﴾ فعليكم أن تقفوا عند حدوده ، وأن تراقبوه وتتذكروا إطلاعه على أعمالكم ، وتتوخوا فيها الحق والعدل ؟ وتتقوا الهوى الذى يصد عن ذلك .

وبهذه المحافظة على العهود والمواثيق سراً وجهراً امتازت الشريعة الإسلامية على الشرائع الوضعية ، فشعار أهلها الوفاء بالعهود والبعد عن الخيانة والغدر . وإن أعظم دول المدنية فى العصر الحاضر تنقض عهودها جهرة متى وجدت الفرصة سانحة ، ولاسيما عهودها للضعفاء ، وتتخذها خداعا مع الأقوياء ،

وما أكثر قول الدولة الألمانية : ما المعاهدات إلا قصاصات ورق ، وقال بسمارك أكبر ساسة هذه الدولة : المعاهدات حجة القوى على الضعيف ، وأبرع الساسة فى التنصل منها بالتأويل هم الإنكليز .

﴿ **والذين كفروا بعضهم أولياء بعض** ﴾ أى فى النصرة والتعاون على قتال المشركين ، فهم فى جملتهم فريق واحد تجاه المسلمين ، وإن كانوا شيعا يعادى بعضهم بعضا ، ولم يكن فى الحجاز حين نزلت هذه السورة إلا المشركون واليهود ، وكان اليهود يتولون المشركين وينصرونهم على النبى ﷺ والمؤمنين ونقضوا العهود التى كانت بينه وبينهم فقاتلهم حتى أجلاهم من خيبر . ﴿ **إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير** ﴾ أى إن لم تفعلوا ما شرع لكم من ولاية بعضكم لبعض ، ومن تناصركم وتعاونكم تجاه ولاية الكفار بعضهم لبعض عليكم ، ومن الوفاء بالعهود والمواثيق مع الكفار إلى أن ينقضى عهدهم وينبذوه على سواء ــ يقع من الفتنة والفساد فى الأرض ما فيه أعظم الضرر عليكم بتخاذلكم الذى يفضى إلى فشلكم وظفر الأعداء بكم واضطهادكم فى دينكم بصدكم عنه كما وقع ذلك بضعفائكم بمكة قبل الهجرة .

ثم فضل الله المهاجرين والأنصار على غيرهم فقال :

﴿ **والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم** ﴾ .

أى لهم مغفرة تامة من ربهم تمحو ما فرط منهم من السيئات ، ورزق كريم فى دار الجزاء ، لأنهم قد تركوا الأهل والوطن وبذلوا النفس والمال وأعرضوا عن سائر اللذات الجسمانية ، وعملوا ما يقربهم من ربهم فى دار النعيم .

﴿ **والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم** ﴾ .

أى والذين تأخر إيمانهم وهجرتهم عن الهجرة الأولى وهاجروا وجاهدوا معكم أعداءكم فأولئك منكم أى فيلتحقون بالمهاجرين الأولين والأنصار بما تقدم من الولاية والجزاء .

وفى جعلهم منهم دليل عن فضل السابقين على اللاحقين يرشد إلى ذلك قوله تعالى ﴿ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى ﴾[١] وقوله تعالى ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ﴾[٢] ولا يخفى ما فى الآية من ترغيب فى الإيمان والهجرة .

﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله** ﴾ .

أولوا الأرحام : هم أصحاب القرابات ، والأرحام واحدها رحم (بزنة قُفْل وكَتِف) وأصله رحم المرأة

(١) الآية ١٠ من سورة الحديد . (٢) الآية ١٠٠ من سورة التوبة .

وهو موضع تكوين الولد ، سمى به الأقارب لأنهم من رحم واحد ، أى وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض وأحق من المهاجرين والأنصار الأجانب بالتعاون والتناصر ، وبالتوارث فى دار الهجرة فى ذلك العهد وفى كل عهد ، وقوله فى كتاب الله ، أى فى حكمه الذى كتبه على عباده المؤمنين ، وأوجب به عليهم صلة الأرحام والوصية بالوالدين وذى القربى .

والخلاصـــة :

أن القريب ذا الرحم أولى من غيره من المؤمنين بولاء قريبه وبره ومقدم عليه فى جميع الولايات المتعلقة به ، كولاية النكاح وصلاة الجنازة وغيرها ، وإذا وجد قريب وبعيد يستحقان البر والصلة فالقريب أولى كما قال تعالى ﴿ وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين ﴾[1] وقال رسول الله ﷺ « ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شيءفلأهلك فإن فضل شيء عن أهلك فلذى قرابتك – فإن فضل عن ذى قرابتك شيء فهكذا وهكذا » أى فللمستحق من الأجانب .

﴿ **إن الله بكل شيء عليم** ﴾ أى فهو سبحانه وتعالى إنما شرع لكم هذه الأحكام فى الولاية العامة والخاصة والعهود والمواثيق وصلة الأرحام وأحكام القتال والغنائم وسفن التشريع والأحكام – عن علم واسع محيط بكل شيء من مصالحكم الدينية والدنيوية ، ونحو الآية قوله « ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم » زادنا الله علماً بفقه كتابه ، ووفقنا للعمل بأحكامه وآدابه ، وجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعه أحسنه ، إنه هو السميع المجيب .

(١) الآية ٣٦ من سورة النساء .

سورة براءة

مقدمـــة

قال صاحب البصائر :

هذه السورة مدنية بالاتفاق .

وعدد آياتها مائة وتسع وعشرون عند الكوفيين ، وثلاثون عند الباقين .

عدد كلماتها ألفان وأربعمائة وسبع وتسعون كلمة .

وحروفها عشرة آلاف وسبعمائة وسبع وثمانون حرفاً .

ولهذه السورة ثمانية أسماء : **الأول** براءة ؟ لافتتاحها بها ، **الثانى** سورة التوبة ، لكثرة ذكر التوبة فيها (ثم تاب عليهم ليتوبوا) (لقد تاب الله على النبى) **الثالث** الفاضحة ، لأن المنافقين افتضحوا عند نزولها . **الرابع** . المبعثرة ، لأنها تبعثر عن أسرار المنافقين ، وهذا الاسمان رويا عن ابن عباس . **الخامس** المقشقشة . لأنها تبرئ المؤمن ، فتنظفه من النفاق وهذا عن ابن عمر . **السادس** البحوث ، لأنها تبحث عن نفاق المنافقين . وهذا عن أبي أيوب الأنصارى . **السابع** سورة العذاب لما فيها من انعقاد الكفار بالعذاب مرة بعد أخرى (سنعذبهم مرتين) **الثامن** الحافرة ، لأنها تحفر قلوب أهل النفاق بمثل قوله : ﴿ إلا أن تقطع قلوبهم ﴾ ﴿ فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم ﴾ .

مقصد السورة إجمالاً

وَشم قلوب الكفار بالبراءة ورد العهد عليهم ، وأمان مستمع القرآن وقهر أئمة الكفر وقتلهم ، ومنع الأجانب من عمارة المسجد الحرام ، وتخصيصها بأهل الإسلام ، والنهى عن موالاة الكفر ، والإشارة إلى وقعة حرب حنين ومنع المشركين من دخول الكعبة ، والحرم ، وحضور الموسم والأمر بقتل كفرة أهل الكتاب وضرب الجزية عليهم .

وتقبيح قول اليهود والنصارى فى حق عزير وعيسى عليهما السلام ، وتأكيد رسالة الرسول الصادق الحق ، وعيب أحبار اليهود فى أكلهم الأموال بالباطل ، وعذاب مانعى الزكاة ، وتخصيص الأشهر الحرم من أشهر السنة ، وتقديم الكفار شهر المحرم ، وتأخيرهم إياه والأمر بغزوة تبوك ، وشكاية المتخلفين عن الغزو ، وخروج النبى ﷺ مع الصديق رضى الله عنه من مكة إلى الغار بجبل ثور واحتراز المنافقين من غزوة تبوك ، وترصدهم وانتظارهم نكبة المسلمين ورد نفقاتهم عليهم ، وقسم الصدقات على المستحقين ، واستهزاء المنافقين بالنبى ﷺ ، وبالقرآن وموافقة المؤمنين بعضهم بعضاً ، ونيلهم الرضوان الأكثر بسبب موافقتهم .

وتكذيب الحق للمنافقين فى إيمانهم ونهى النبى عن الاستغفار لأحياءهم ، وعن الصلاة على أمواتهم ، وعيب المقصرين على اعتذارهم بالأعذار الباطلة .

وذم الأعراب فى صلابتهم ، وتمسكهم بالدين الباطل ، ومدح بعضهم بصلابتهم فى دين الحق ، وذكر

السابقين من المهاجرين والأنصار ، وذكر المعترفين بتقصيرهم ، وقبول الصدقات من الفقراء ودعاءهم على ذلك ، وقبول توبة التائبين ، وذكر بناء مسجد ضرار للغرض الفاسد ، وبناء مسجد قباء على الطاعة والتقوى ، ومبايعة الحق تعالى عبيده باشتراء أنفسهم وأموالهم ومعاوضتهم عن ذلك بالجنة ، ونهى إبراهيم الخليل من استغفار المشركين ، وقبول توبة المتخلفين المخلص من غزوة تبوك ، وأمر ناس بطلب العلم والفقه فى الدين ، وفضيحة المنافقين ، وفتنتهم فى كل وقت ، ورأفة الرسول ﷺ ورحمته لأمته وأمر الله نبيه بالتوكل عليه فى جميع أحواله بقوله ﴿ فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت ﴾ الآية .

المتشابهات

قوله : ﴿ **واعلموا أنكم غير معجزى الله** ﴾ وبعده ﴿ **واعلموا أنكم غير معجزى الله** ﴾ ليس بتكرار ، لأن الأول للمكان ، والثانى للزمان ، وتقدم ذكرهما فى قوله ﴿ **فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر** ﴾ .

قوله ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ وبعده ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ ليس بتكرار ؟ لأن الأول فى المشركين ، والثانى فى اليهود ، فيمن حمل قوله : ﴿ **اشتروا بآيات الله ثمنا قليلاً** ﴾ على التوراة .وقيل : هما فى الكفار وجزاء الأول تخلية سبيلهم ، وجزاء الثانى إثبات الأخوة لهم ومعنى (بآيات الله) القرآن .

قوله : ﴿ **كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله** ﴾ ثم ذكر بعده (كيف) واقتصر عليه ، فذهب بعضهم إلى أنه تكرار للتأكيد ، واكتفى بذكر (كيف) عن الجملة بعد ، لدلالة الأولى عليه . وقيل تقديره : كيف لا تقتلونهم ولا يكون من التكرار فى شىء .

قوله : ﴿ **لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة** ﴾ وقوله : ﴿ **لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة** ﴾ الأول للكفار والثانى لليهود . وقيل ذكر الأول . وجعله جزاء للشرط ، ثم أعاد ذلك ، تقبيحاً ، فقال : ﴿ **ساء ما يعملون لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة** ﴾ . فلا يكون تكراراً محضاً .

قوله ﴿ **الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم** ﴾ إنما قدم (فى سبيل الله) لموافقة قوله قبله (وجاهدوا فى سبيل الله) وقد سبق ذكره فى الأنفال . وقد جاء بعده فى موضعين ﴿ **بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله** ﴾ ليعلم أن الأصل ذلك ، وإنما قدم هنا لموافقة ما قبله فحسب .

قوله تعالى ﴿ **كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون** ﴾ بزيادة باء ، وبعده ﴿ **كفروا بالله ورسوله** ﴾ و ﴿ **كفروا بالله ورسوله** ﴾ بغير باء فيهما ، لأن الكلام فى الآية الأولى إيجاب بعد نفى ، وهو الغاية فى باب التأكيد ، وهو قوله ﴿ **وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله** ﴾ فأكد المعطوف أيضاً بالباء ليكون الكل فى التأكيد على منهاج واحد ، وليس كذلك الآيتان بعده ، فإنهما خلتا من التأكيد .

قوله : ﴿ **فلا تعجبك أموالهم** ﴾ بالفاء ، وقال فى الآية الأخرى . ﴿ **ولا تعجبك** ﴾ بالواو ، لأن الفاء يتضمن معنى الجزاء والفعل الذى قبله مستقبل ﴿ ولا ينفقون إلا ﴾ أى : إن يكن منهم ما ذكر فجزاؤهم ، وكان الفاء ها هنا أحسن موقعاً من الواو التى بعدها قبلها ﴿ **كفروا بالله ورسوله وماتوا** ﴾ بلفظ الماضى

وبمعناه والماضى لا يتضمن معنى الشرط – ولا يقع من الميت فعل وكان الواو أحسن .

قوله ﴿ **ولا أولادهم** ﴾ بزيادة (لا) وقال : فى الأخرى ﴿ **وأولادهم** ﴾ بغير (لا) لأنه لما أكد الكلام الأول بالإيجاب بعد النفى وهو الغاية ، وعلق الثانى بالأول تعليق الجزاء بالشرط ، اقتضى الكلام الثانى من التوكيد ما اقتضاه الأول فأكد معنى النهى بتكرار (لا) فى المعطوف .

قوله تعالى : ﴿ **إنما يريد الله ليعذبهم** ﴾ ، وقال : فى الأخرى : ﴿ **أن يعذبهم** ﴾ لأن (أن) فى هذه الآية مقدرة ، وهى الناصبة للفعل ، وصار اللام ها هنا زيادة كزيادة الباء ، (ولا) فى الآية . وجواب آخر : وهو أن المفعول فى هذه الآية محذوف ، أى يريد الله أن يزيد فى نعمائهم بالأموال والأولاد ، ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا . والآية الأخرى إخبار عن قوم ماتوا على الكفر فتعلق الإرادة بما هم فيه ، وهو العذاب .

قوله : ﴿ **فى الحياة الدنيا** ﴾ وفى الآية الأخرى ﴿ **فى الدنيا** ﴾ لأن (الدنيا) صفة للحياة فى الآيتين فأثبت الصفة، والصفة فى الأولى ، وحذف الموصوف فى الثانية اكتفاء بذكره فى الأولى ، وليست الآيتان مكررتين ، لأن الأولى فى قوم ، والثانية فى آخرين ، وقيل : الأولى فى المنافقين والثانية فى اليهود .

قوله : ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله** ﴾ وفى الصف ﴿ **ليطفئوا نور الله** ﴾ هذه الآية تشبه قوله : ﴿ **يريد الله أن يعذبهم** ﴾ و﴿ **ليعذبهم** ﴾ حذف اللام من الآية الأولى ، لأن مرادهم إطفاء نور الله بأفواههم ، وهو المفعول به ، والتقدير : ذلك قولهم بأفواههم ، ومرادهم إطفاء نور الله بأفواههم ، والمراد الذى هو المفعول به فى الصف مضمر تقديره : ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب – يريدون ذلك – ليطفئوا نور الله فاللام لام العلة .وذهب بعض النحاة إلى أن الفعل محمول على المصدر ، أى إرادتهم لإطفاء نور الله .

قوله : ﴿ **ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ هذه الكلمات تقع على وجهين : أحدهما : ذلك الفوز بغير (هو) وهو فى القرآن فى ستة مواضع : فى براءة موضعان ، وفى النساء ، والمائدة والصف والتغابن ، وما فى النساء (وذلك) بزيادة واو . والثانى ذلك هو الفوز بزيادة (هو) وذلك فى القرآن فى ستة مواضع أيضاً : فى براءة موضعان وفى يونس والمؤمن والدخان والحديد وما فى براءة أحدهما بزيادة الواو وهو قوله ﴿ **فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ وكذلك ما فى المؤمن بزيادة واو . والجملة إذا جاءت بعد جملة من غير تراخ بنزول جاءت مربوطة بما قبلها إما بواو العطف . وإما بكناية تعود من الثانية إلى الأولى ، وإما بإشارة فيها إليها . وربما يجمع بين اثنين منها . والثلاثة ؟ للدلالة على مبالغة فيها . ففى السورة ﴿ **خالداً فيها ذلك** ﴾ و﴿ **خالدين فيها ذلك** ﴾ ومنها أيضا ﴿ **ورضوان من الله أكبر ذلك هو** ﴾ فجمع بين اثنين . وبعدهما ﴿ **فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو** ﴾ فجمع بين الثلاثة ، تنبيهاً على أن الاستبشار من الله يتضمن رضوانه والرضوان يتضمن الخلود فى الجنان .

قال تاج القراء : ويحتمل أن ذلك لما تقدمه من قوله : ﴿ **وعداً عليه حقاً فى التوارة والإنجيل والقرآن** ﴾ فيكون كل واحد منهما فى مقابلة واحد وكذلك فى المؤمن تقدمه ﴿ **فاغفر** ، **وقهم** ، **وأدخلهم** ﴾ فوقعت فى مقابلة الثلاثة .

قوله : ﴿ **وطبع على قلوبهم** ﴾ ثم قال بعد : ﴿ **وطبع الله على قلوبهم** ﴾ لأن قوله (وطبع) محمول على رأس الآية ، وهو قوله : ﴿ **وإذا أنزلت سورة** ﴾ فبنى مجهول على مجهول ، والثانى محمول ، على ما تقدم من ذكر الله تعالى مرات وكان اللائق : وطبع الله ، ثم ختم كل آية بما يليق بها ، فقال فى الأولى : لا يفقهون ، وفى الثانية : لا يعلمون ، لأن العلم فوق الفقه ، والفعل المسند إلى الله فوق المسند إلى المجهول .

قوله : ﴿ **وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون** ﴾ ، وقال فى الأخرى : ﴿ **وسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون** ﴾ لأن الأولى فى المنافقين ، ولا يطلع على ضمائرهم إلا الله تعالى ، ثم رسوله بإطلاع الله إياه عليها ، كقوله : ﴿ **قد نبأنا الله من أخباركم** ﴾ والثانية فى المؤمنين وطاعات المؤمنين وعباداتهم ظاهرة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وختم آية المنافقين بقوله : (ثم تردون) فقطعه عن الأولى ، لأنه وعيد . وختم آية المؤمنين بقوله : (وستردون) لأنه وعد ، فبناه على قوله (فسيرى الله) .

قوله : ﴿ **إلا كتب لهم به عمل صالح** ﴾ وفى الأخرى ﴿ **إلا كتب لهم ليجزيهم الله** ﴾ (لأن الآية الأولى) مشتملة على ما هو من عملهم ، وهو قوله : ﴿ **ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً** ﴾ ، وعلى ما ليس من عملهم . وهو الظمأ والنصب والمخمصة ، والله سبحانه بفضله أجرى ذلك مجرى عملهم فى الثواب ، فقال : ﴿ **إلا كتب لهم به عمل صالح** ﴾ أى جزاء عمل صالح ، والثانية مشتملة على ما هو من عملهم ، وهو إنفاق المال فى طاعته ، وتحمل المشاق فى قطع المسافات ، فكتب لهم بعينه ، لذلك ختم الآية بقوله : ﴿ **ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون** ﴾ . لكون الكل من عملهم فوعدهم حسن الجزاء عليه وختم الآية بقوله : ﴿ **إن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ حين ألحق ما ليس من عملهم بما هو من عملهم ، ثم جازاهم على الكل أحسن الجزاء .

وجه المناسبة

ووجه المناسبة بينها وبين ما قبلها – الأنفال – أنها كالمتممة لها فى معظم ما فى أصول الدين وفروعه ، وفى التشريع الذى جله فى أحكام القتال والاستعداد له ، وأسباب النصر فيه ، وأحكام المعاهدات والمواثيق من حفظها ونبذها عند وجود المقتضى لذلك وأحكام الولاية فى الحرب وغيرها بين المؤمنين بعضهم مع بعض ، والكافرين بعضهم مع بعض ، وأحوال المؤمنين الصادقين والكفار المذبذبين من المنافقين ومرضى القلوب ، فما بدىء به فى الأولى أتم فى الثانية – وهاك أمثلة على ذلك :

(١) تفصيل الكلام فى قتال المشركين وأهل الكتاب .

(٢) ذكر فى الأولى صد المشركين عن المسجد الحرام ، وأنهم ليسوا بأوليائه ، وجاء فى الثانية ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله ﴾ إلى آخر الآيات .
(٣) ذكرت العهود فى سورة الأنفال ، وافتتحت سورة التوبة بتفصيل الكلام فيها .
(٤) ذكر فى سورة الأنفال الترغيب فى إنفاق المال فى سبيل الله ، وجاء ذلك بأبلغ وجه فى براءة .
(٥) جاء فى الأولى ذكر المنافقين والذين فى قلوبهم مرض ، وفصل فى الثانية أتم تفصيل .

ولم يكتب الصحابة ولا من بعدهم البسملة فى أولها ، لأنها لم تنزل معها كما نزلت مع غيرها من السور ، وقيل رعاية لمن كان يقول إنها مع الأنفال سورة واحدة وقيل لأنها جاءت لرفع الأمان والابتداء بالبسملة مذكورا فيها اسم الله موصوناً بالرحمة يوجبه .

النص الكريم

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ (٢) وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ (٦)

المفردات : ﴿ **البراءة** ﴾ : من برىء من الدَّيْن إذا أسقط عنه ، ومن الذنب ونحوه إذا تركه وتباعد عنه . ﴿ **والمعاهدة** ﴾ : عقد العهد بين فريقين على شروط يلتزمونها وكان كل فريق يضع يمينه فى يمين الآخر ويوثقونها بالأيمان ، ومن جراء ذلك سميت أيماناً فى قوله تعالى : ﴿ **إنهم لا أيمان لهم** ﴾ أى لا عهود لهم ، والسياحة فى الأرض : الانتقال والتجوال فيها ، ويراد بها هنا حرية الانتقال مع الأمان مدة أربعة أشهر لا يعرض المسلمون لهم فيها بقتال . وقوله . ﴿ **غير معجزى الله** ﴾ ، أى لا تفوتونه بالهرب والتحصن والخزى : الذل والفضيحة بما فيه عار . ﴿ **والأذان** ﴾ : الإعلام بما ينبغى أن يعلم .

﴿ ويوم الحج الأكبر ﴾ : هو يوم النحر الذى تنتهى فيه فرائض الحج ويجتمع فيه الحاج لإتمام مناسكهم . ﴿ ثم لم ينقصوكم شيئاً ﴾ : أى من شروط الميثاق فلم يقتلوا أحد منكم ولم يضروكم . ﴿ ولم يظاهروا ﴾ : أى لم يعاونوا . ﴿ انسلاخ الأشهر ﴾ : انقضاؤها والخروج منها يقال : سلخ فلان الشهر وانسلح منه ومنه قوله تعالى ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ . ﴿ والحرم ﴾ : وهى الأشهر التى حرم الله فيها قتالهم فى الأذان والتبليغ بقوله : ﴿ فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ﴾ وقوله : ﴿ وخذوهم ﴾ : أى بالأسر . ﴿ والأخيذ ﴾ : الأسير ، واحصروهم : أى امنعوهم من الخروج واحبسوهم . ﴿ والمرصد ﴾ : الموضع الذى يرقب فيه العدو ، يقال رصدت فلانا أرصده : إذا ترقبته ، أى اقعدوا لهم على كل مرصد . ﴿ واستجاره ﴾ : طلب جواره أى حمايته وأمانه ، وقد كان من عادات العرب حماية الجار والدفاع عنه حتى أنهم يسمون النصير ، جاراً . ﴿ وأجره ﴾ : أى ، أمنه ، ومأمنه أى مسكنه الذى يأمن فيه ، وهو دار قومه ، وقول لا يعلمون أى ما الإسلام وما حقيقته ، فلابد من إعطاء الأمان حتى يفهموا بحق ولا يبقى لهم معذرة .

قال العلامة ابن كثير : هذه السورة من آواخر ما نزل على رسول الله ﷺ كما قال البخارى حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة عن ابن اسحاق قال : « سمعت البراء بن عازب يقول آخر آية ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة ﴾ وآخر سورة نزلت براءة »[١] .

وإنما لم يبسمل فى أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة فى أولها فى المصحف الإمام بل اقتدوا فى ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه وأرضاه كما قال الترمذى .

حدثنا محمد بن بشار حدثنا يحيى بن سعيد ومحمدبن أبى جعفر وابن أبى عدى وسهيل بن يوسف قالوا حدثنا عوف بن أبى جميلة أخبرنى يزيد الفارسى أخبرنى ابن عباس قال : « قلت لعثمان بن عفان ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى وإلى براءة وهى من المئين وقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها فى السبع الطوال ما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان بن عفان : كان رسول الله ﷺ مما يأتى عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وخشيت أنها منها ، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها فى السبع الطول »[٢] وكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائى وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه من طرف آخر عن عوف الأعرابى به وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج ثم ذكر أن

(١) أخرجه البخارى فى التفسير (سورة ٤ : ٢٧ - وسورة ٩ : ١) . ومسلم فى الفرائض (١١ ، ١٢) .

(٢) أخرجه الترمذى فى تفسير (سورة ٩ : ١) . والإمام أحمد فى (١ : ٥٧ ، ٦٩) .

المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عاداتهم فى ذلك وأنهم يطوفون بالبيت عراة فكره مخالطتهم وبعث أبا بكر الصديق رضى الله عنه أميرا على الحج تلك السنة ليقيم للناس مناسكهم ويُعلِم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا وأن ينادى فى الناس ﴿ **براءة من الله ورسوله** ﴾ فلما قفل أتبعه بعلى بن أبى طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ . لكونه عصبة له .

قوله تعالى ﴿ **براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين** ﴾ .

أى هذه براءة وتبرؤ من الله تعالى ورسوله ﷺ إلى الذين عاهدتم من المشركين .

قال بعض أهل العلم : هذه الآية لذوى العهود المطلقة غير المؤقتة أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان لقوله تعالى ﴿ **فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم** ﴾ الآية . ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته وهذا أحسن الأقوال وأقواها .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله ﴿ **براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر** ﴾ الآية قال حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسيحون فى الأرض حيث شاءوا ، وأجل أجل من ليس له عهد انسلاخ الأشهر الحرم من يوم النحر إلى سلخ المحرم ، فذلك خمسون ليلة .

فأمر الله نبيه إذا انسلخ المحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد بقتلهم حتى يدخلوا فى الإسلام ، وأمر بمن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر أن يضع فيهم السيف أيضاً حتى يدخلوا الإسلام .

وقال أبو معشر المدنى حدثنا محمد بن كعب القرظى وغيره قالوا : « بعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميرا على الموسم سنة تسع وبعث على بن أبى طالب بثلاثين أو أربعين آية من براءة فقرأها على الناس يؤجل المشركين أربعة أشهر يسيحون فى الأرض فقرأها عليهم يوم عرفة أجلهم عشرين من ذى الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشرا من ربيع الآخر وقرأها عليهم فى منازلهم وقال : لا يحجن بعد عامنا هذا مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان »[1] .

قوله تعالى ﴿ **فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر** ﴾ أى سيروا مطمئنين فى الأرض لمدة أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله ، أى غير فارين أو فائتين من عقابه ، فالسموات السبع وما أظلت ، والأرضون وما أقلت فى قبضته جل جلاله ، وهى مطويات بيمينه ، واعلموا كذلك أن الله مخزى الكافرين فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فبالقتل والهزيمة ، وأما فى الآخرة فبالعذاب الأليم .

---

(١) أخرجه البخارى فى الصلاة (١٠) وفى الحج (٦٧) وفى الجزية (١٦) وفى المغازى (٦٦) وفى التفسير (سورة ٩ : ٢ ، ٣ ، ٤) ومسلم فى الحج (٤٣٥) . وأبو داود المناسك (٦٦) . والترمذى فى تفسير (سورة ٩ : ٦) . والنسائى فى الحج (١٦١) . والدارمى فى الصلاة (١٤٠) وفى السير (٦٢) . والإمام أحمد فى (١ : ٣) وفى (٢ : ٢٩٩) .

قوله تعالى ﴿ **وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله** ﴾ .

المقصود بالأذان هنا الإعلام وهذا الإعلام صادر من الله على لسان رسوله ومصطفاه إلى الناس يوم الحج الأكبر ، المقصود به يوم النحر ، أن الله برىء من المشركين ورسوله ، وهذا توكيد لما جاء فى أول السورة .

ثم دعاهم سبحانه إلى التوبة فقال ﴿ **فإن تبتم فهو خير لكم** ﴾ خير لكم فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فإن الإسلام عزة وكرامة ورفعة وشموخ وعلو إلى عالم الطهر والنقاء والصفاء ، وأما فى الآخرة فقد وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ورضوان من الله أكبر ، ذلك هو الفوز العظيم .

ثم أعقب الوعد بالوعيد فقال سبحانه ﴿ **وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله** ﴾ وكيف يعجزونه جل فى علاه والوجود ملكه والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته سبحانه وتعالى ، تنزهت عن الشريك ذاته ،وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف وبالإحسان موصوف معروف بلا غاية وموصوف بلا نهاية ، كل شىء قائم به وكل شىء خاشع له،واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة ، قوة كل ضعيف وغنى كل فقير ومفزع كل ملهوف ، وعز كل ذليل ، من تكلم سمع نطقه ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه أول بلا بداية وآخر بلا نهاية ، ﴿ وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليماً قديراً ﴾[1] ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾[2] .

قوله تعالى ﴿ **وبشر الذين كفروا بعذاب أليم** ﴾ أى جزاء ما قدموا ، وبما كسبت أيديهم وكان الأصل أن تكون البشارة بما يسر ، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه لكانوا أهلاً لتلك البشارة ، لكنهم لما كفروا وعصوا الرسول استحقوا أن تكون البشارة إخباراً بعذاب أليم .

قال البخارى رحمه الله : حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا الليث حدثنى عقيل عن ابن شهاب قال : أخبرنى حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال : « بعثنى أبو بكر رضى الله عنه فى تلك الحجة فى المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمعنى أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان » . قال حميد : « ثم أردف النبى ﷺ بعلى بن أبى طالب فأمره أن يؤذن ببراءة . قال أبو هريرة فأذن معنا على فى أهل منى يوم النحر ببراءة وأن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان » . وروى الإمام أحمد بإسناده عن محرز بن أبى هريرة عن أبيه قال كنت مع على بن أبى طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة فقال : ما كنتم تنادون ؟ قال : كنا ننادى أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ولا

(١) الآية ٤٤ من سورة فاطر .
(٢) الآية ٦١ من سورة النحل .

يطوف بالبيت عريان . ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله أو مدته إلى أربعة أشهر فإذا مضت الأربعة أشهر فإن الله برىء من المشركين ورسوله ولا يحج هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك ، قال فكنت أنادى حتى صحل صوتى » .

وقال الشعبى حدثنى محرز عن أبى هريرة عن أبيه قال : « كنت مع على بن أبى طالب رضى الله عنه حين بعثه النبى ﷺ ينادى فكان إذا صحل ناديت فقلت بأى شيء كنتم تنادون ؟ قال بأربع : لا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يحج بعد عامنا هذا مشرك » .

وقال محمد بن إسحاق عن حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف عن أبى جعفر محمد بن على بن الحسين بن على قال : « لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ وقد كان بعث أبا بكر ليقيم الحج الأكبر للناس ، فقيل يا رسول الله لو بعثت إلى أبى بكر فقال « لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى » ثم دعا عليا فقال « اذهب بهذه القصة من سورة براءة وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته فخرج على رضى الله عنه على ناقة رسول الله ﷺ العضباء حتى أدرك أبا بكر فى الطريق فلما رآه أبو بكر قال : أمير أو مأمور ؟ فقال : بل مأمور ، ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج إذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية ، حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبى طالب فأذن بالناس بالذى أمره رسول الله ﷺ فقال يا أيها الناس : إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته : فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ولم يطف بالبيت عريان ، ثم قدما على رسول الله ﷺ فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام وأهل المدة إلى الأجل المسمى » .

قوله تعالى ﴿ **إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين** ﴾ .

فى هذه الآية يخبر سبحانه وتعالى بأن من كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإنه يجب الوفاء به إلى مدته بشرط ألا ينقص المسلمين شيئا ، ولم يظاهر عليهم أحدا من الأعداء ، فإذا توافر للمعاهد ما ذكر وجب إتمام العهد إلى مدته ، فما أعظم الإسلام فى وفائه ، وما أجمله فى عدله وعهده ووعده إنه الوفاء المشروط بعدم النقصان ومظاهرة الأعداء ليكون ذلك دليلا على حسن النيات .

قال جل شأنه : ﴿ إن العهد كان مسئولا ﴾[1] .

فما أعظم قوله تعالى فى ختام تلك الآية : ﴿ **إن الله يحب المتقين** ﴾ . إن التقوى هى السياج المنيع الذى يقى أصحابه الوقوع فى الزلل والارتكاس فى حمأة الرذيلة . إن التقوى هى الخوف من الجليل

(١) الآية ٣٤ من سورة الإسراء .

والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل . قال تعالى : ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾[١] وقال جل شأنه : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب ﴾[٢] .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى تقلب عريانا ولو كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

قوله تعالى : ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم** ﴾ .

هناك أقوال فى الأشهر الحرم ما هى ؟ نختار منها ما ذهب إليه ابن عباس وجماعة ، من أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها بقوله تعالى ﴿ **فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر** ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم** ﴾ أى إذا انقضت الأشهر الأربعة التى حرمنا عليكم فيها قتالهم ، وأجلناهم فيها ، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم وخذوهم أسرى ، واحصروهم بالتضييق عليهم ، واقعدوا لهم كل مرصد ، وسدوا عليهم المنافذ ، وأحكموا قبضتكم عليهم ، فهذه أوامر أربعة : القتل والأسر والحصر ، والقعود لهم فى كل مرصد .

ثم فتح الله تعالى لهم باب الرحمة والأمل والتوبة والمغفرة ، فقال ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم** ﴾ كما قال فى آية أخرى : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ﴾[٣] . ومن هاتين الآيتين يستفاد تخلية السبيل والأخوة فى الدين .

وقد جعل الله تعالى من مظاهر التوبة إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وهما من أعظم أركان الإسلام . ففى الصلاة إشارة إلى العبادة البدنية والروحية ، وفى الزكاة إشارة إلى العبادة المالية ، وكثيرا ما قرن القرآن الكريم بينها فى صيغ متنوعة وصور مختلفة ، فقد يعبر عنهما بصيغة الماضى كما فى قوله جل شأنه ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ﴾[٤] .

وقد يعبر عنهما بصيغة المضارع كما فى قوله جل شأنه : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾[٥] .

وقد يأتيان فى صورة الأمر كما فى قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا ﴾[٦] .

وقد يردان بصيغة الصفة كما فى قوله جل شأنه : ﴿ والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة ﴾[٧] وقد

(١) الآية ٢٦ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ١٩٧ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٥ من سورة الأحزاب .
(٤) الآية ١٨ من سورة التوبة .
(٥) الآية ٧١ من سورة التوبة .
(٦) الآية ٢٠ من سورة المزمل .
(٧) الآية ١٦٢ من سورة النساء .

يأتيان بصيغة المصدر كما فى قوله جل شأنه : ﴿ يسبح له فيها بالغدو والآصال * رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾[١] . وقد رويت عن رسول الله ﷺ أحاديث تفيد ما لمكانة هاتين العبادتين من عظمة فى الإسلام نسوق منها قوله ﷺ :

– جاء فى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلّه إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة)[٢] .

– وقال الإمام أحمد بسنده عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلّه إلا الله وأن محمدا رسول الله فإذا شهدوا أن لا إلّه إلا الله وأن محمدا رسول الله واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا وصلوا صلاتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ﴾[٣] رواه البخارى فى صحيحه .

– وقال الإمام أبو جعفر بن جرير بسنده عن الربيع بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : (من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا يشرك به شيئا فارقها والله عنه راض)[٤]وقال أنس : هو دين الله الذى جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء وتصديق ذلك فى كتاب الله فى آخر ما أنزل . قال الله تعالى ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم** ﴾ قال : توبتهم خلع الأوثان وعبادة ربهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ثم قال فى آية أخرى ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ﴾ .

– وقال أبو إسحق عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ومن لم يزك فلا صلاة له .

– وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة وقال : يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه .

ولما ذكر تعالى التوبة ناسب ذلك أن يقرنها بالمغفرة والرحمة ، فسبحانه من رب غفور ، وسعت رحمته كل شيء ، يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، لو يعلم المدبرون عنه كيف انتظاره لهم ، ورفقه بهم ، وشوقه لمغفرة ذنوبهم ، لماتوا شوقا إليه ، ولتقطعت أوصالهم من محبته . هذه الحال للمدبرين عنه فكيف بالمقبلين عليه ؟ !

يارب حبك فى دمى وكيانى	نور أغر يذوب فى وجدانى
أنا لا أضام وفى رحابك عصمتى	أنا لا أخاف وفى رضاك أمانى

سبحانك من إلّه قطرة من فيض جودك تملأ الأرض ريا ، ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر وليا .

(١) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ من سورة النور .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث .

(٣) أخرجه البخارى فى الصلاة (٢٨) . والترمذى فى الإيمان (٢) . والنسائى فى التحريم (١) وفى الإيمان (١٥) والإمام أحمد فى (٣ : ١٩٩ ، ٢٢٥) .

(٤) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة (٩) .

الشمس والبدر من أنوار حكمته والبر والبحر فيض من عطاياه
الطير سبحه والوحش مجده والموج كبره والحوت ناجاه
والنمل تحت الصخور الصم قدسه والنحل يهتف حمدا فى خلاياه
والناس يعصونه جهرا فيسترهم والعبد ينسى وربى ليس ينساه

قوله تعالى : ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون** ﴾ .

وهذا باب آخر من أبواب الرحمة الإسلامية والسماحة والمروءة والندى ، فقد فتح الإسلام باب (الإجارة) فقال الله لرسوله الكريم ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك** ﴾ وطلب جوارك وأمانك فأعطه هذا الأمان ، وأسمعه كلام الله الذى أنزله على صدرك غضا ندياً ، يتقاطر نورا ورحمة . أسمعه هذا الكلام الذى لو نزل على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وأعطه هذا الأمان حتى يبلغ مأمنه من وطن ودار ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون الحق فهم معرضون ، فلعلهم بعد سماع كلام الله يتقون أو يحدث لهم ذكرا .

إن الإسلام يخاطب العقل الرشيد بالمنطق السديد ، يقيم دعوته على البراهين الساطعة ، والحجج القاطعة . قيل لأعرابى لم آمنت بمحمد ؟ فقال لأنه لم يأمر بشيء وقال العقل : ليته ما أمر . ولم ينه عن شيء وقال العقل : ليته ما نهى .

إن أتباع هذا الدين هم الذين أعلنوها فى سمع الزمان عالية مدوية : سنطب المريض بدوائنا ، وسنؤمن الخائف فى رحابنا ، وسنتلوا على الدنيا كتاب جهادنا صمت أذن الدنيا إن لم تسمع لنا .

قال ابن أبى نجيح عن مجاهد فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك** ﴾ قال : إنسان يأتيك ليسمع ما تقول ، وما أنزل عليك ، فهو آمن حتى يأتيك فتسمعه كلام الله ، وحتى يبلغ مأمنه حيث جاء ، ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطى الأمان لمن جاءه مسترشداً أو فى رسالة كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش منهم عروة بن مسعود ، ومكرز بن حفص ، وسهيل بن عمرو وغيرهم واحدا بعد واحد يترددون فى القضية بينه وبين المشركين ، فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم .

ولهذا أيضا لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له : أتشهد أن مسيلمة رسول الله ؟ قال نعم ، فقال رسول الله ﷺ « لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك » .

وقد قيض الله له ضرب العنق فى إمارة ابن مسعود على الكوفة ، وكان يقال له ابن النواحة ظهر عنه فى زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة فأرسل إليه ابن مسعود فقال له : إنك الآن لست فى

رسالة ، وأمر به فضربت عنقه لا رحمه الله ولعنه .

والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام فى أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب ، وطلب من الإمام أو نائبه أمانا أعطى أمانا ، ما دام مترددا فى دار الإسلام ، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه .

لكن قال العلماء لا يجوز أن يمكن من الإقامة فى دار الإسلام سنة ، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان عن الإمام الشافعى وغيره من العلماء رحمهم الله .

المشركون والعهود

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾

المفردات : ﴿ **ظهر عليه** ﴾ : غلبه وظفر به .و ﴿ **ورقب الشيء** ﴾ : رعاه وحاذره لأن الخائف يرقب العقاب ويتوقعه ، ومنه فلان لا يرقب الله فى أموره : أى لا ينظر إلى عقابه فيركب رأسه فى المعصية .و ﴿ **الإل** ﴾ : القرابة قال ابن مقبل :

أفسد الناس خلوف خلفوا قطعوا الإل وأعراق الرحم

و﴿ **الذمة والذمام** ﴾ : العهد الذى يلزم من ضيعه الذم ، وكان خفر الذمام ونقض العهد عندهم من العار . ﴿ **فاسقون** ﴾ : أى خارجون من قيود العهود والمواثيق متجاوزون لحدود الصدق والوفاء ، من قولهم : فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها . ﴿ **نكثوا** ﴾ : أصل النكث نقض الحبل ثم استعير لنقض العهد . ﴿ **لا أيمان** ﴾ : المراد لا عهود لهم .

قوله تعالى ﴿ **كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين** ﴾ .

هذا استفهام إنكارى يفيد النفى ، وهو أبلغ من التصريح بالنفى لما فيه من التبكيت والتوبيخ والتقريع ، أى لا عهد لهؤلاء المشركين الناكثين للعهود الناقضين للعهود ، إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام وهم المعنيون فى قوله جل جلاله ﴿ **إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين** ﴾ .

وهنا عبر عن هذه الشروط بقوله تعالى ﴿ **فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم** ﴾ فاشترط للوفاء بالعهد استقامتهم على ما شرط وعدم النكث .

ثم أكد سبحانه ألا عهد للمشركين فقال ﴿ **كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة** ﴾ أى كيف يكون لهم عهد وهم يتربصون بكم الدوائر ، وينتهزون الفرص ، فإنهم إن يظهروا عليكم ويغلبوكم لا يراعون فيكم قرابة ، ولا عهداً ، فالخيانة فى دمائهم إنهم مخادعون مراوغون ، ومن مظاهر خداعهم أنهم يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون .

هؤلاء المراوغون ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾[1] إن قلوبهم قد طويت على الخيال والخداع والدخل ، اتخذوا أيمانهم جنة ، ﴿ **اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون** ﴾ .

لقد اشتروا الدنيا وهى مهما بلغت قليلة ضئيلة اشتروها بأغلى الأشياء بآيات الله فصدوا عن سبيله وقعدوا بكل صراط يعدون ، ويصدون عن سبيل الله من آمن به ويبغونها عوجاً ، قبح فعلهم ، وساء صنيعهم ، وأصبح عملهم شنيعاً إذ لا شىء أشد سوءاً من أن يبيع الإنسان آخرته بدنياه ، فالدنيا مهما أقبلت فهى مدبرة ، ومهما أعطت فهى مولية ومهما ضحكت فهى مكشرة .

هى الدنيـــا تقـــول بملء فيها ... حذارى حذارى من بطشى وفتكى
فـلا يغرركمـوا منـى ابـتسام ... فقـولى مضحك والفعل مبكــى
إذا حلت أوحلت ، وإذا كست أوكست ... وإذا جلت أوجلت وإذا أينعت نعت
وكم من قصور تبنى ومـــا تبنـــا ... وكم من مريض عدنـا ومـا عدنـــا
وكم من ملك رفعت له علامات ... فلمـــــــــــــا علا مات

ثم أكد الله تعالى نقضهم للعهد فقال ﴿ **لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون** ﴾ أى لا يراعون قرابة ولا عهداً فى مؤمن ، لأن الاعتداء شيمة من شيمهم ، فهم طغاة متجبرون ، ومع كل تلك السخائم التى جبلوا عليها فإن الله تعالى فتح باب التوبة ، فقد وسعت رحمته كل شىء لمن تاب وآمن

(١) الآية ١١٩ من سورة آل عمران .

وعمل صالحاً ثم اهتدى فقال ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾ .

إذ لو علموا ما نقضوا لله عهداً ، ولا خانوا لمؤمن ذمة ، ولما علم الله منهم تلك الطباع الملتوية عقب على هذه الآية بقوله ﴿ **وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون** ﴾ .

وذلك لأن ضرب الرؤوس منهم يخيف الأتباع . ويفزعهم ، وهؤلاء جبناء رعاديد وأنتم يا أتباع محمد الأبطال الصناديد ، والعبد يقرع بالعصا والحر تكفيه المقالة .

تحريض على قتال المشركين

أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

كيف لا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم التى أقسموا بها عند المعاهدة ، ونقضوا عهدهم من بعد توكيده ، وهذا استفهام لإنكار عدم قتالهم ، وهو يفيد الحض على القتال والحث عليه ، ببيان شناعة جرمهم ، وعظيم فعلهم المقتضى للقتال ، ألا تراهم هموا بإخراج الرسول من مكة ، أو حبسه حتى لا يراه أحد ، أو قتله بأيدى عصابة مكونة من القبائل حتى يضيع دمه ﴿ وإذ يمكر بك الذى كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله ﴾[1] .

وقد بدأوكم بالقتال أولا وقد قيل : الشر بالشر والبادئ أظلم ، وقد كان منهم كل ذلك إذ نقضت قريش العهد ، وأعانت بنى بكر على خزاعة وقتلوا منهم كثيرا ، حتى استنجدوا برسول الله ، وقد أخرجوا النبى ﷺ من بلده مكة ، وأخرجوا غيره من المهاجرين ، وبدءوا بالقتال يوم بدر .

ثم قال بعد هذه الحجج : أتخشونهم وتتركون قتالهم خشية وخوفاً ، إن كانت الخشية هى المانعة فالله أحق بها إن كنتم مؤمنين ، إذ شرط الإيمان الخوف من الله وحده ، وخشيته دون سواه وهذا الاستفهام يفيد الإنكار والتوبيخ ولكن للمنافقين ولمن كانوا يعظمون أمر القتال ، ويرون أنه لا يليق برحمة الإسلام ، وعطفه على الناس .

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الأنفال .

ثم بعد هذا البيان الكامل أمرهم بالقتال فقال : ﴿ **قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم** ﴾ إذ هو الفاعل حقيقة وأنتم باشرتم العمل فى الظاهر ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾[(١)] إن تقاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم بالقتل والأسر والهزيمة ، وينصركم عليهم نصراً مؤزراً ، ما دمتم تنصرون الله بطاعته ، ويشف صدور قوم مؤمنين كانت قد ملئت غيظاً وألماً من أفعال المشركين بهم فى مكة .

وقيل إن خزاعة شفى الله صدرها بحرب المسلمين لقريش وأحلافهم ، ويذهب غيظ قلوبهم بما كابدت قريش من المكاره والمكايد .

وقد أنجز الله وعده وصدق عبده ، ونصر جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وهذا تحريض للقتال بأسلوب بليغ مع تبليغ أن النصر للمسلمين .

ويتوب الله بعد ذلك على من يشاء من عباده حسب مشيئته المبنية على الحكمة البالغة ولا غرابة فالله عليم بخلقه لا تخفى عليه خافية حكيم لا يفعل إلا ما فيه الخير والحكمة لعباده .

تمحيص المسلمين

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

والمراد بالوليجة : البطانة وصاحب سر مأخوذ من الولوج وهو الدخول وصاحبك يدخل فى محيط أسرارك .

يقول تعالى ﴿ **أم حسبتم** ﴾ أيها المؤمنون أن نترككم مهملين لانختبركم بأمور يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب ، ولهذا قال ﴿ **ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة** ﴾ أى بطانة ودخيلة ، بل هم فى الظاهر والباطن على النصح كله ولرسوله ، فاكتفى بأحد القسمين عن الآخر كما قال الشاعر :

وما أدرى إذا يممت أرضا أريد الخير أيهما يلينى

ولقد قال الله تعالى فى الآية الأخرى ﴿ ألم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾[(٢)] .

وقال تعالى ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ﴾[(٣)] الآية . وقال تعالى ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه ﴾[(٤)] الآية .

(١) الآية ١٧ من سورة الأنفال .
(٢) الآيات ١ – ٣ من سورة العنكبوت .
(٣) الآية ٢١٤ من سورة البقرة .
(٤) الآية ١٧٩ من سورة آل عمران .

والحاصل أنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد بين أن له فيه حكمة ، وهو اختبار عبيده من يطيعه ممن يعصيه ، وهو تعالى العالم بما كان ، وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، فيعلم الشيء قبل كونه ، ومع كونه على ما هو عليه ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه ، ولا راد لما قدره وأمضاه .

المشركون لا يعمرون المساجد

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

المفردات : ﴿ **أن يعمروا** ﴾ : عمارة المسجد فى اللغة تشمل لزومه والإقامة فيه وعباده الله فيه وبنيانه وترميمه وخدمته والإرعاء عليه والعناية به . ﴿ **مساجد** ﴾ : جمع مسجد وهو مكان السجود ثم استعمل فى البيوت الخاصة بعبادة الله وحده والمراد المسجد الحرام . ﴿ **شاهدين على أنفسهم بالكفر** ﴾ : شاهدة حال لا مقال . ﴿ **حبطت** ﴾ : أى بطلت وضاعت فكانت هباء منثورا . ﴿ **فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين** ﴾ : عسى فى كلام الله تفيد تحقق الوقوع .

روى عن ابن عباس رضى الله عنه : « أنه لما أسر العباس يوم بدر عيره المسلمون بالكفر وقطيعة الرحم ، وأغلظ له على فى القول فقال العباس : مالكم تذكرون مساوينا وتنسون محاسننا ؟ فقال على : ألكم محاسن ؟ فقال : نعم ، إننا نعمر المسجد الحرام ، ونحجب الكعبة ، ونسقى الحاج ، فأنزل الله عز وجل رداً على العباس هذه الآيات » .

والمراد أنها تتضمن الرد على العباس وأمثاله لأنها وقعت عقب قوله وهى مناسبة لنقض عهودهم ، وعدم حجهم البيت ، ومنعهم منه ، إذ أنها تفيد منع خدمتهم وعمارتهم للمسجد الحرام أيضاً .

يخبر سبحانه وتعالى بأن المشركين ما ينبغى لهم أن يعمروا مساجد الله حالة كونهم شاهدين على أنفسهم بالكفر ، فالمسجد مهابط الرحمة ، ومنازل السكينة ، ومنارات الهدى ، و بروج التوحيد . ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾(١) .

فكيف يتأتى للمشركين أن يعمروها وهى بيوت الله فى الأرض ، وعمارها زوارها ، فطوبى لعبد تطهر فى بيته ثم زار الله فى بيته ، وحق على المزور أن يكرم زائره .

إن المشركين قد حبطت أعمالهم ، وخاب سعيهم ، وضل سؤلهم ، فالله سبحانه وتعالى لا يقبل من عبد عملا إلا إذا كان صوابا خالصا ، والشرك يحبط الأعمال ويجعلها عارية من الصواب والإخلاص .

---

(١) الآية ١٨ من سورة الجن .

جاء فى الحديث القدسى الجليل ﴿ أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى تركته وشريكه ﴾[١] .

لذا حكم الله على أعمالهم بأنها محبطة ، وحكم عليهم بالخلود فى النار ثم بين تعالى إن الذين يعمرون مساجد الله هم المؤمنون بالله واليوم الآخر ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ولا يخشون إلا الله ، فاستحقوا أن يكونوا أهلا للهداية قال تعالى :

﴿ **فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين** ﴾ وعسى فى كلام الله حق ، وقد أخبر النبى ﷺ عن فضل المساجد وعمارها فقال ﴿ إنما عمار المساجد هم أهل الله ﴾ رواه البزار .

وقال ﷺ ﴿ إذا أراد الله بقوم عاهة نظر إلى أهل المساجد فصرف عنهم ﴾ رواه الدارقطنى .

وعن أنس رضى الله عنه مرفوعاً « يقول الله : [وعزتى وجلالى إنى لأهم بأهل الأرض عذابا فإذا نظرت إلى عمار بيوتى وإلى المتحابين فى وإلى المستغفرين بالأسحار صرفت ذلك عنهم] » . وروى الإمام أحمد بإسناده عن معاذ بن جبل ان النبى ﷺ قال : « إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصبة والناحية ، فإياكم والشعاب ، وعليكم بالجماعة ، والعامة والمسجد »[٢] . وعن عمرو بن ميمون الأزدى قال : « أدركت أصحاب محمد ﷺ وهم يقولون إن المساجد بيوت الله فى الأرض وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها » . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « من سمع النداء بالصلاة ثم لم يجب ولم يأت المسجد ويصل فلا صلاة له وقد عصى الله ورسوله » .

وقال ﷺ : (بشر المشائين فى الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة)[٣] .

اللهم اجعلنا من أوتاد المساجد ، الذين جلساؤهم الملائكة ، إن غابوا افتقدوهم ، وإن مرضوا عادوهم ، وإن كانوا فى شدة دعوا الله لهم .

فضل الإيمان والجهاد

*** أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)**

(١) أخرجه مسلم فى الزهد (٤٦) . وابن ماجه فى الزهد (٢١) . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى (٥ : ٢٢٣ ، ٢٤٣) .

(٣) أخرجه الترمذى فى الصلاة (٥١) . وأبو داود فى الصلاة (٤٩) . وابن ماجه فى المساجد (١٤) .

المفردات : ﴿ **السقاية** ﴾ : الموضع يسقى فيه الماء فى المواسم وغيرها . ﴿ **وسقاية العباس** ﴾ : موضع بالمسجد الحرام يستقى فيه الناس ، وهى حجرة كبيرة فى جهة الجنوب من بئر زمزم لا تزال مائلة إلى الآن ، وقد يراد بالسقاية الحرفة كالحجابة وهى سدانة البيت ، والسقاية والحجابة أفضل مآثر قريش وقد أقرها الإسلام وفى الحديث : « كل مأثرة من مآثر الجاهلية تحت قدمى إلا سقاية الحاج وسدانة البيت »[1] .

وقد كانت قريش تسقى الحاج الزبيب المنبوذ فى الماء ، وكان يليها العباس بن عبد المطلب فى الجاهلية والإسلام .

هذه الآيات مكملة لما قبلها مبينة أن عمارة المسجد الحرام للمسلمين دون المشركين ، وأن إسلامهم أفضل مما كان يفخر به المشركون من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج فيه .

روى مسلم وأبو داود عن النعمان بن بشير قال : « كنت عند منبر رسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه فقال رجل منهم ما أبالى ألا أعمل لله عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج ، وقال آخر : بل عمارة المسجد الحرام ، وقال آخر : بل الجهاد فى سبيل الله خير مما قلتم ، فزجرهم عمر وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ – وذلك يوم الجمعة ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ لأستفتيه فيما اختلفتم فيه ، فدخل بعد الصلاة فاستفتاه فأنزل الله ﴿ أجعلتم سقاية الحاج ﴾ إلى قوله ﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ .

﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ﴾ .

الخطاب فى الآية للمؤمنين الذين تنازعوا – أى الأعمال أفضل – والمراد : إنه لا ينبغى أن تجعلوا أهل السقاية والعمارة فى الفضيلة ، كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ، فإن السقاية والعمارة وإن كانتا من أعمال البر والخير فأصحابهما لا يدانون أهل الايمان والجهاد فى علو المرتبة وشرف المقدار ، وقد صرح بهذا فى قوله : ﴿ **لا يستوون عند الله** ﴾ أى لا يساوى الفريق الأول الفريق الثانى ، لا فى صفته ولا فى عمله فى حكم الله ، ولا فى مثوبته وجزائه عليه لافى الدنيا ولافى الآخرة ، فضلا عن أن يفضله كما يزعم كبراء مشركى قريش الذين كانوا يتبجحون بخدمة البيت ويستكبرون على الناس بها .

﴿ والله لا يهدى الظالمين ﴾ .

أى لا يهديهم إلى الحق فى أعمالهم ، ولا إلى الحكم العدل فى أعمال غيرهم ، إذ ليس فى سنته تعالى فى أخلاق البشر وأعمالهم أن يهدى الظالم إلى شىء من ذلك ، ومن أقبح الظلم تفضيل خدمة حجارة

---

(١) أخرجه أبو داود فى الديات (١٧ ، ٢٤) ، وابن ماجه فى الديات (٥) . والإمام أحمد فى (٢ : ١١ ، ٣٦ ، ١٠٣) وفى (٣ : ٤١٠) وفى (٥ : ٧٣ ، ٤١٢) .

البيت ، وحفظ مفتاحه ، وسقاية الحاج على الإيمان بالله وحده ، إذ به تطهر الأنفس من أدناس الشرك وخرافاته ، وعلى الإيمان باليوم الآخر الذى يزع النفس عن البغى والظلم ويحبب إليها الحق والعدل ، ويرغبها فى الخير وعمل البر ، ابتغاء مرضاه الله لا للفخر والرياء ، وعلى الجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال لإحقاق الحق ، وإبطال الباطل .

ثم بين سبحانه مراتب فضلهم إثر بيان عدم استوائهم هم والمشركين الظالمين فقال : ﴿ **الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله** ﴾ .

أى هم أعظم درجة وأعلى مقاماً فى مراتب الفضل والكمال فى حكم الله ، وأكبر مثوبة من أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الذين رأى بعض المسلمين أن عملهم إياهما من أفضل القربات بعد الإسلام .

فالذين نالوا فضل الهجرة والجهاد بنوعيه النفسى والمالى أعلى مرتبة وأعظم كرامة ممن لم يتصف بهما كائنا من كان ، ويدخل فى ذلك أهل السقاية والعمارة .

﴿ **وأولئك هم الفائزون** ﴾ .

أى وأولئك المؤمنون المهاجرون المجاهدون هم الفائزون بمثوبة الله وكرامته دون من لم يكن مستجمعا لهذه الصفات الثلاث ، وإن سقى الحاج وَعَمَر المسجد الحرام ، فإن ثواب المؤمن على هذين العملين دون ثوابه على الهجرة والجهاد ، ولا ثواب للكافرعليهما فى الآخرة ، فإن الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر يحبط الأعمال البدنية ، وإن فرض فيها حسن النية .

ثم فصل سبحانه ذلك الفوز العظيم بقوله :

﴿ **يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً** ﴾ .

أى يبشرهم ربهم فى كتابه على لسان رسوله ، وعلى لسان ملائكته حين الموت برحمة منه ورضوان كامل من لدنه لا يشوبه سخط ، وجنات تجرى من تحتها الأنهار ، ولهم فيها نعيم مقيم لا يزول على عظمته وكماله ، حال كونهم ، خالدين فيها أبدا .

﴿ **إن الله عنده أجر عظيم** ﴾ .

أى إن ما عند الله من الأجر على الإيمان وصالح العمل الذى من أشقه الهجرة ، والجهاد عظيم لا يقدر قدره إلا الله الذى تفضل به ومنحه لعباده المكرمين ، ولاسيما على الإيمان الكامل الباعث على هجرة الوطن ومفارقة الأهل والسكن ، وعلى إنفاق المال الذى هو أحب شىء إلى النفس ، وعلى بذل النفس التى هى أعز شىء على الإنسان .

فما أجدرهم أن يبشرهم بأنواع من الأجر والجزاء ما بين روحى وجسمى ، فالأول الرحمة

والرضوان ، والرضوان هو نهاية الإحسان ، وهو أعلى النعيم ، وأكمل الجزاء كما يدل على ذلك قوله : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ﴾(١) .

وما رواه الشيخان والترمذى والنسائى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ؟ فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك ؟ فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك . فيقولون : ربنا وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا)(٢) .

والثانى هو النعيم المقيم فى جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا .

الإيمان والحب فى الله والبغض فى الله

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

المفردات : ﴿ **استحب** ﴾ : كذا وأحبه ، بمعنى . ﴿ **والظلم** ﴾ : وضع الشىء فى غير موضعه . ﴿ **والعشيرة** ﴾ : ذو القرابة الأدنون الذين من شأنهم التعاون والتناصر . ﴿ **والاقتراف** ﴾ : الاكتساب . ﴿ **وكساد التجارة** ﴾ : ضد رواجها . ﴿ **والتربص** ﴾ : الانتظار . ﴿ **وأمره** ﴾ : عقوبته إن عاجلا أو آجلا .

لما أعلن الله براءته وبراءة رسوله من المشركين ، وآذنهم بنبذ العهد بعد أن ثبت أنه لا عهد لهم ، عز ذلك على بعض المسلمين ، وتبرم به ضعفاء الايمان ، وكان أكثرهم من الطلقاء الذين أعتقهم النبى ﷺ يوم فتح مكة ، وكان موضع الضعف نصرة القرابة وعصبية النسب ، إذ كان لا يزال لكثير منهم أولوا قرابة من المشركين يكرهون قتالهم ، ويتمنون إيمانهم ، بل كان لبعض ضعفاء الإيمان وليجة وبطانة منهم .

من أجل هذا بين الله فى هاتين الآيتين أن فضل الإيمان والهجرة والجهاد ، ونيل ما بشر الله به أهله

(١) الآية ٧٢ من سورة التوبة .

(٢) أخرجه البخارى فى الرقاق (٥١) وفى التوحيد (٣٨) . ومسلم فى الجنة (٩) . والترمذى فى الجنة (١٨) . والإمام أحمد فى (٣ : ٨٨ ، ٩٥) .

من رحمته ورضوانه ودخول جناته ، لا يكمل إلا بترك ولاية الكافرين ، وإيثار حب الله ورسوله والجهاد فى سبيله على حب الوالد والولد والأخ والزوج والعشيرة والمال والسكن

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ﴾ .

أى لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء تنصرونهم فى القتال ، وتظاهرون لأجلهم الكفار ، أو تطلعونهم على أسرار المؤمنين وما يستعدون به لقتال المشركين إن أصروا على الكفر ، وآثروه على الإيمان ، فإن فى ذلك قوة المشركين على قتال المؤمنين وخضداً لشوكتهم .

وقد حدث ذلك منذ ظهور الإسلام وإلى نزول هذه السورة ، فقد كتب حاطب بن أبى بلتعة ، وهو من أهل بدر ، وقد استخفته نعرة القرابة إلى مشركى مكة خفية يعلمهم بما عزم عليه النبى ﷺ من قتالهم ، ليتخذ له بذلك يداً عندهم يكافئونه عليها بحماية ما كان له عندهم من قرابة ، وفى ذلك نزلت سورة الممتحنة للنهى عن موالاة أعداء الله وأعدائهم .

﴿ ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾ .

أى ومن يتولهم وهم على تلك الحال فأولئك المتولون لهم هم الظالمون لأنفسهم ولجماعتهم ، بوضعهم الموالاة فى غير موضعها منهم ، قد وضعوا الولاية فى موضع البراءة ، والمودة فى محل العداوة ، وقد حملهم على هذا الظلم نعرة القرابة وحمية الجاهلية .

ونحو الآية قوله فى سورة الممتحنة : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم الله عند الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾[1] .

وبعد أن بين ما وصل إليه حالهم من الإخلال بالإيمان ، انتقل إلى بيان سبب ذلك فقال :

﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ﴾ .

أى قل لهم : وإن كنتم تفضلون حظوظ الدنيا وشهواتها من الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة ، على حب الله ورسوله والجهاد فى سبيله الذى وعدتم عليه أنواع السعادة الأبدية فى الآخرة ، فانتظروا حتى يأتى أمر الله : أى عقوبته التى تحل بكم عاجلا أو آجلا .

وقد ذكر سبحانه الأمور الداعية إلى مخالطة الكفار وحصرها فى أربعة :

(١) مخالطة الأقارب وذكر منهم الآباء والأبناء والإخوان والأزواج ، ثم ذكر الباقى بلفظ العشيرة .

(١) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الممتحنة .

(٢) الميل إلى إمساك الأموال المكتسبة .
(٣) الرغبة فى تحصيل الأموال وتثميرها بالتجارة .
(٤) الرغبة فى الأوطان والدور التى بنيت للسكنى .

وخلاصة ذلك : إن كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية أولى عندكم من طاعة الله وطاعة رسوله ، ومن المجاهدة فى سبيله ، فتربصوا بما تحبون حتى يأتى الله بعقوبة من عنده عاجلة أو آجلة .

ولا يخفى ما فى ذلك من الوعيد والتهديد ، ومن الإيماء إلى أنه إذا وقع التعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا وجب على المسلم نبذ الثانية وإلقاؤها وراءه ظهريا .

وبتفصيل ما تقدم من الآية نجد أنها حوت أمورا ثمانية من أفضل ما يحب :

(ا) **حب الأبناء للآباء** : وهو غريزى فى النفوس ، فالولد بضعة من أبيه ، يرث بعض صفاته وطبائعه من جسمية وخلقية ، وقد كان العرب يتفاخرون بآبائهم فى أسواقهم ، وفى معاهد الحج ، كما قال تعالى حاثا على ذكره : ﴿ فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً ﴾[١] .

(ب) **حب الآباء للأبناء** : وهو غريزى أيضا ، وحب الوالد للولد أقوى وأبقى من عكسه ، فهو يحرص على بقائه كما يحرص على نفسه أو أشد ، ويحرم نفسه كثيراً من الطيبات ، ويقوم بتربيته وتعليمه ، إذ هو مناط الآمال وزينة الحياة كما قال تعالى : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾[٢] .

(ج) **حب الإخوة** : وهو يلى فى المرتبة حب البنوة والأبوة ، وهو حب يقتضيه التناصر والتعاون فى الكفاح فى الحياة ، والبيوت التى سلمت فطرة أهلها ، وكرمت أخلاقهم ، يحبون أخوتهم كأنفسهم وأولادهم ، ويوقرون كبيرهم ، ويرحمون صغيرهم ، ويكفلون من يتركه أبوه فيتربى مع أولادهم كأحدهم .

(د) **حب الزوجة** : وبالزوجية يتحد بشران يتمم وجود كل منهما وجود الآخر ، وينتجان بشراً مثلهما ، ومن ثم امتن الله علينا به فقال : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾[٣] .

(هـ) **حب العشيرة** : وهو حب عصبية وتعاون وولاية ونصر فى مواطن القتال والنزال والذود عن الحمى والحريم ، وهو يكون على أشده فى أهل البداوة ، ومن على مقربة منهم من أهل الحضر .

(و) **حب الأموال المقترفة** : أى المكتسبة وهو أقوى من حب الأموال الموروثة لأن عناء النفس فى جمعها يجعل لها فى قلبه منزلة لا تكون لما يجىء من المال عفوا .

(ز) **حب التجارة التى يخشى كسادها فى حال الحرب** ، وقد كان لبعض المسلمين من أهل مكة

---
(١) الآية ٢٠٠ من سورة البقرة . (٢) الآية ٤٦ من سورة الكهف . (٣) الآية ٢١ من سورة الروم .

تجارة يخشون كسادها فى ذلك الحين ، لأن أكثر مستهلكيها كانوا من المشركين ، وكانت أسواقها تنصب فى موسم الحج ، وقد منع منه المشركون بنص الآيات السابقة واللاحقة .

(ح) **حب المساكن الطيبة المرضية** ، وقد كان لبعض المسلمين دور حسنة فى مكة ، كانوا يتمتعون فيها بالإقامة والسكنى ، لما فيها من المرافق وأسباب الراحة .

فهذه الثمانية الأنواع من الحب تجعل القتال مكروها مبغوضا لدى النفوس ، فوق ماله من بغض بمقتضى ذاته كما قال تعالى : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ﴾[١] .

أما حبه تعالى فيجب أن يكون فوق هذه الأنوع ، لفضله وإحسانه بالإيجاد والإعدام ، وتسخير منافع الدنيا للناس ، وهو يتفاوت بتفاوت معارف الإنسان فى آلاء الله فى خلقه ، وإدراك ما فيها من الإبداع والإتقان : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾[٢] .

وكذلك حب رسوله يجب أن يكون فوق هذه أيضا ، فإنه ﷺ كان المثل الأعلى فى أخلاقه وآدابه ، وقد أرسله الله هداية للعالمين إلى يوم الدين .

﴿ والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ .

أى الخارجين من حدود الدين والشريعة ، ومن سلامة الفطرة إلى فساد الطباع ، ومن نور العقل إلى ظلمة الجهل والتقليد .

وقد جرت سنته تعالى أن يكون الفاسقون محرومين من الهداية الفطرية التى يهتدى إلى معرفتها الإنسان بالعقل السليم والوجدان الصحيح ، ومن ثم فهم يؤثرون حب القرابة والمنفعة الطارئة ، كالمال والتجارة ، على حب الله ورسوله ، والجهاد فى سبيله .

هذا ، وقد جاءت أحاديث كثيرة فى فضل حب الله ورسوله ، منها ما رواه الشيخان من حديث أنس مرفوعاً « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار »[٣] .

وعنه أيضا : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين »[٤] .

وما رواه البخارى عن عبد الله بن هشام قال : « كنا مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر : لأنت أحب إلىّ من كل شىء إلا نفسى التى بين جنبى ، فقال النبى ﷺ :

---

(١) الآية ٢١٦ من سورة البقرة . (٢) الآية ٣١ من سورة آل عمران .

(٣) أخرجه مسلم فى الإيمان (٦٦ ، ٦٧) . والبخارى فى الإيمان (٩ ، ١٤) وفى الإكراه .

(٤) أخرجه مسلم فى الإيمان (٦٩ ، ٧٠) . والبخارى فى الإيمان (٨) .

لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك التى بين جنبيك ، فقال عمر : فإنه الآن والله لأنت أحب إلى من نفسى ، فقال له النبى ﷺ : الآن يا عمر » .

والوسيلة إلى هذه المعرفة والحب كثرة الذكر والفكر وتدبر القرآن والتزام أحكام الشرع .

والذكر الحق ، هو ذكر القلب مع حسن النية ، وصحة القصد ، وتأمل سنن الله وآياته فى الخلق ، وأن تذكر حين رؤية كل شىء من صنع الله ، وسماع كل صوت من مخلوقات الله ، أنه يسبح بحمده ويدل على قدرته وحكمته ورحمته .

ومن أقام فرائض الله كما أمر ، وترك معاصيه كما نهى ، فإنه يصل بفضل الله إلى المقام الذى أشار إليه فى الحديث القدسى : [وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها][1] رواه البخارى .

يوم حنين

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٧) ﴾

المفردات : ﴿ **المواطن** ﴾ : واحدها موطن وهو مقر الإنسان ومحل إقامته كالوطن ، والمراد بالموطن هنا مشاهد الحرب ومواقعها . ﴿ **وحنين** ﴾ : واد على ثلاثة أميال من الطائف ، وغزوته تسمى غزوة أوطاس ، وغزوة هوازن . ﴿ **والإغناء** ﴾ : إعطاء ما يدفع الحاجة . ﴿ **والرحب** ﴾ : السعة . ﴿ **ومدبرين** ﴾ : أى هاربين لا تلوون على شىء . ﴿ **والسكينة** ﴾ : الهيئة النفسية التى تحصل من سكون النفس واطمئنانها ، وهى ضد الانزعاج وقد تطلق على الرزانة والوقار .

فى هذه الآيات الكريمة يؤكد الله تعالى نصره للمؤمنين فى مواطن كثيرة ، كما يذكرهم سبحانه بما حدث لهم يوم حنين ، حيث كانوا كثرة كاسرة ، أدخلت علاجب فى النفوس ، ولكنها كانت عبئاً ثقيلا على الكواهل ، فالإسلام لا يعبأ بالكثرة ، لأنه يؤمن بالواحد ، ولما قالوا : لن نغلب اليوم من قلة ، لم تغنى عنهم كثرتهم شيئاً ، ولم تعد عليهم بفائدة ، بل ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وولوا مدبرين لا يلوون

(١) أخرجه البخارى فى الرقاق (٣٨) .

على شيء ﴿ **لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين** ﴾ .

وما كان الله تعالى ليذرهم ، فهو وليهم وناصرهم ، والمدافع عنهم ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ﴾ لكن مقتضى الحال قد يكون من الخير أن يلقن الله عباده دروساً فى التربية تعينهم على الصمود أمام الأحداث ، والتمرس بالشدائد ، فتداركهم الحق بلطف بره ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، فطمأن النفوس ، وجمع القلوب ، وألزمها الوقار ، وأنزل جنوداً لم تروها ، فكانت نتيجة المعركة نصراً للجماعة المؤمنة ، وتعذيباً للكافرين ، وذلك جزاؤهم ﴿ **وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ .

قال تعالى : ﴿ **ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين** ﴾ .

وقد شاءت الحكمة الإلهية ، والرحمة الربانية ، أن يقرن الله الوعد بالوعيد ، فيفتح الله باب التوبة لأصحاب النيات الصادقة ، حيث يشملهم برعايته ومغفرته ورحمته ، وهو التواب الرحيم .

قال تعالى ﴿ **ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم** ﴾ .

إلهى :

ما زلت أعرف بالإساءة دائماً ... ويكون منك الصفح والغفران
لم تنتقصنى إن أسأت وزدتنى ... حتى كأن إساءتى إحسان
منك التفضل والتكرم والرضا ... أنت الإله المنعم المنان

روى أبو يعلى عن جابر أن عدد غزواته ﷺ إحدى وعشرون ، قاتل بنفسه فى ثمان : بدر ، وأحد ، والأحزاب ، والمصطلق ، وخيبر ، ومكة ، وحنين ، والطائف .

وبعوثه وسراياه ست وثلاثون . واختار جمع من العلماء أن المغازى والسرايا كلها ثمانون ، ولم يقع فى بعضها قتال .

ونصرهم فى كل قتال إما نصراً كاملا وهو الأكثر ، وإما نصراً مشوبا بشيء من التربية على ذنوب اقترفوها كما فى أحد ، إذ نصرهم ثم أظهر عليهم العدو لمخالفتهم أمر القائد الأعظم فى أهم أوامر الحرب ، وهو حماية الرماة لظهورهم ، وكما فى حنين من الهزيمة فى أثناء المعركة والنصر التام فى آخرها .

غزوة حنين

وهذه وقائع غزوة حنين كما تحدث عنها كتاب « الرسول القائد » .

غزوة حنين وحصار الطائف

الموقف العام

١ – المسلمـون :

كان لفتح مكة أكبر الأثر فى توحيد شبه الجزيرة العربية كلها تحت ظل الاسلام ، كما كان له أثر معنوى عميق على المسلمين والمشركين على حد سواء ، فأصبحت شبه الجزيرة العربية قوة ذات عقيدة واحدة ، وهدف واحد ، ولم يبق على الشرك إلا بعض القبائل كقبيلتى هوازن وثقيف ، ومن الواضح أن قضية إسلام هذه القبائل أصبحت قضية وقت ليس إلا ، لانهيار أكبر حصن للشرك : مكة ، ولانهيار أكبر عدو للإسلام : قريش .

٢ – المشركـون :

سمعت هوازن وثقيف وبعض القبائل الأخرى بفتح مكة ، فقررت أن تقوم بغزو المسلمين قبل أن يقوم المسلمون بغزوهم ، وأخذت تحتشد فى منطقة الطائف .

ولكن انتشار الإسلام فى تلك القبائل ، جعل الكثيرين من أفرادها وفخوذها يتخلفون عن هذا التحشد ، إذ تخلفت كعب وكلاب أشجع ، كما تخلفت قبائل أخرى ، ورجال من ذوى العقول .

كان التردد ظاهراً على القبائل المحتشدة ، وكان الاختلاف واضحاً بينها ، ولم تكن معنوياتها عالية .

قوات الطرفين

١ – المسلمـون :

اثنا عشر ألفاً ، بين راكب وراجل ، بقيادة الرسول ﷺ : ألفان من أهل مكة ، وعشرة آلاف من المسلمين الذين حضروا الفتح .

٢ – المشركون :

قبيلة هوازن « عدا عقيل بن كعب بن ربيعة ، وبشر بن كعب بن ربيعة وبنى كلاب بن ربيعة ، وسائر إخواتهم » ومعظم قبيلة ثقيف بقيادة مالك بن عوف النضرى ، من هوازن .

أهداف الطرفين

١ ـــ المسلمـون :

ضرب القبائل المحتشدة قبل أن يستفحل أمرها ، وتهدد مكة نفسها ، ومن فيها من المسلمين .

٢ ـــ المشركون :

القضاء على قوات المسلمين ، وأخذ المبادأة منهم .

قبل المعركة

١ – المسلمون :

سمع الرسول ﷺ بأخبار تحشد هوازن وثقيف لمهاجمة المسلمين ، فأرسل عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى ، وأمره أن يذهب إلى منطقة تحشد المشركين للتأكد من صحة تلك الأخبار .

وعاد عبد الله الأسلمى من واجبه ليخبر المسلمين بأن قبائل هوازن وثقيف قد أنجزت تحشدها فى منطقة وادى أوطاس ، وأنها تنوى مهاجمة المسلمين .

قرر الرسول ﷺ مهاجمة هذه القبائل ليحتفظ بالمبادأة بيد المسلمين ، وبدأ بإنجاز الإستعدادات الضرورية للحركة .

وبلغ الرسول ﷺ أن عند صفوان بن أمية دروعاً وسلاحاً ، فاستعارها من صفوان ليكمل بها تسليح قوته ، وكان عددها مائة درع مع أسلحتها .

ولما أنجز المسلمون استحضاراتهم ، تحركوا باتجاه حنين ، وكانت المقدمة مؤلفة من قسم بقيادة خالد بن الوليد ، وأمامها القطعات الراكبة من الفرسان ، وكان القسم الأكبر مؤلفاً من القبائل الأخرى ، وأمام كل قبيلة رايتها ، وكانت الكتيبة الخضراء المؤلفة من المهاجرين والأنصار فى مؤخرة القسم الأكبر ، ومعها الرسول ﷺ .

وصل جيش المسلمين فجراً إلى وادى حنين ، وذلك الجيش الذى قال المسلمون عنه : لن تغلب اليوم من قلة .

٢ – المشركون :

احتشدت هوازن وثقيف فى وادى حنين (أوطاس) ومعهم نساؤهم وأطفالهم وأموالهم ، وقد أراد مالك بن عوف قائدهم أن تكون الذرارى والأموال مع المقاتلين ، حتى يشعر كل رجل منهم وهو يقاتل أن حرمته وثروته وراءه ، فلا يفر عنها .

وقد اعترض دريد بن الصمة وهو فارس مجرب قائلا لمالك : « هل يرد المنهزم شىء ؟ إن كانت الدائرة لك لم ينفعك إلا رجل برمحه وسيفه ، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك ». فكان جواب مالك : « والله لا أفعل ذلك ، إنك قد كبرت وكبر علمك ، والله لتطيعننى يا معشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى » .

اضطرت هوازن إلى الأخذ برأى مالك ، وكان شاباً فى الثلاثين من عمره ، قوى الإرادة ، ماضى العزيمة ، شجاعاً ، ولكنه كان سقيم الرأى متهوراً ، سىء المشورة .

كانت خطة مالك تتلخص فى احتلال قمم وادى حنين ومضيق الوادى ، فإذا دخلت قوات المسلمين فى الوادى ، باغتهم المشركون بالرمى عليهم بالنبال من كل جانب لتحطيم صفوفهم ، ثم القيام

بالهجوم لإجبارهم على الانسحاب ، وأكمل المشركون احتلال هضاب الوادى ومضايقه قبل دخول المسلمين إليه ، وكمنوا فى مواضعهم المستورة ، انتظاراً لجيش المسلمين .

القتـــال

١ - هجوم المشركين :

دخلت قوات المسلمين وادى حنين فجراً ، وكان وادياً أجوف منحدراً ، ينحط فيه الركبان كلما أوغلوا ، كأنهم يسيرون إلى هاوية ، فلما استقرت أكثر قوات المسلمين فى الوادى ، رماهم المشركون بوابل من سهامهم ، فلم يعرف المسلمون مصدر ذلك الرمى ، لأن الظلام كان سائداً وقتذاك ، ولأن مواضع المشركين كانت مخفية تماماً ، فانسحبت مقدمة المسلمين وجرفت أمامها قوات المسلمين الأخرى ، فانقلب انسحاب المسلمين إلى هزيمة .

ورأى أبو سفيان هزيمة المسلمين فقال : « لا تنتهى هزيمتهم دون البحر » .

وقال آخرون ممن أسلموا حديثاً مثل قوله ، بل إن شيبة بن عثمان بن طلحة الذى قتل أبوه فى غزوة أحد ، حاول اغتيال الرسول ﷺ فى هذا الموقف العصيب ، ليدرك ثأر أبيه من محمد ﷺ . وترك المشركون مواضعهم للقيام بالمطاردة بعد انسحاب المسلمين ، وكان يتقدم هوازن رجل على جمل له أحمر ، بيده راية سوداء فى رأس رمح طويل ، وهو كلما أدرك المسلمين طعن برمحه ، وهوازن وثقيف منحدرون وراءه يطعنون ، وانتشر الفزع بين المسلمين ، وازدحمت المسالك بالسابلة ، وارتبكت الصفوف واختلطت القبائل ببعضها ، وركبت الإبل بعضها بعضا وهى مولية بأصحابها وتعقدت الأمور .

٢ - هجوم المسلمين المقابل :

ثبت الرسول ﷺ فى مكانه ، وثبت معه عشرة من أهل بيته ومن المهاجرين ، بينهم عمه العباس ، وأخذ الرسول ينادى الناس إذ يمرون به منهزمين « أين أيها الناس ؟ أين ؟ هلموا إلى أنا رسول الله أنا محمد ابن عبد الله » فلا يرد عليه أحد .

عند ذلك أمر الرسول ﷺ عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادى : يا معشر الأنصار يا أصحاب البيعة يوم الحديبية :

وكرر العباس النداء حتى تجاوبت أصداؤه فى جنبات الوادى ، وسمع النداء المهاجرون والأنصار فأخذوا يكافحون ليبلغوا مصدر الصوت ، فرمى أكثرهم درعه وترك بعيره ، واستصحب معه سيفه وترسه فقط ليبلغ مصدر الصوت بسرعة .

واجتمع حول الرسول ﷺ نحو مائة مسلم وهم يصيحون لبيك فاستقبل الرسول ﷺ بهم المشركين ، وصمدوا فى مواضعهم ، حتى فتر هجوم المشركين ، وكان النهار قد طلع والمشركون قد تركوا مواضعهم ، فلا يحتاج المسلمون إلا إلى الصمود لإيقاع بعض الخسائر بالمشركين ، لكى تتزعزع

معنوياتهم وينسحبوا من الميدان ، ولولا صمود هذا العدد القليل من المسلمين ومشاغلتهم المشركين لكانت خسائر المسلمين فى تلك المعركة كبيرة جداً .

وأخذ عدد المسلمين الصامدين يتزايد ، وهناك بدأوا الهجوم المقابل على المشركين ، وعندما رأت هوازن وثقيف أن المقاومة لا تجديهم نفعاً ، وأنهم لا يستطيعون صد هجوم المسلمين انسحبوا من ميدان المعركة تاركين وراءهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم غنيمة للمسلمين ، ولم يكن للمشركين ساقة لحماية الانسحاب ، فانقلب انسحابهم إلى هزيمة .

٣ - المطاردة

انسحب أكثر ثقيف باتجاه الطائف ، وكان معهم مالك بن عوف ، وانسحبت هوازن والقبائل الأخرى باتجاه أوطاس ونخلة ، وقام المسلمون بالمطاردة ، وأعلن النبى ﷺ أن من قتل مشركا فله سلبه ، ووصلت مطاردة المسلمين إلى أوطاس ، فأوقعوا بهوازن هناك خسائر فادحة بالأرواح ، كما وصلوا إلى نخلة فأوقعوا بهوازن هناك خسائر فادحة بالأرواح ، كما وصلوا إلى نخلة فأوقعوا بالمنسحبين إلى هناك خسائر فادحة أيضاً ، كما استسلم كثير من المشركين أسرى ، ولما عاد حديثو العهد بالإسلام من هزيمتهم رأوا الكثيرين من المشركين أسرى مصفدين بالأغلال .

حصار الطائف

وصل بعض المسلمين بمطاردتهم إلى الطائف التى التجأ المنهزمون من المشركين إليها ، وكانت مدينة محصنة ذات أسوار وحصون قوية ، ولها أبواب تغلق عليها .

وتجمعت أرتال المسلمين التى طاردت المنسحبين إلى أوطاس ونخلة بعد إنجاز واجباتها برتل المسلمين الذى طارد ثقيفا باتجاه الطائف ، لإجبار ثقيف على الإستسلام .

إلا أن ثقيفا سددت نبالها على المسلمين الذين كانوا قريبين من الحصون ، فأوقعوا فيهم بعض الخسائر ، فقرر الرسول ﷺ الانسحاب بعيداً عن مرمى النبل ، واستقر المسلمون هناك .

وفكر المسلمون فى وسيلة يستطيعون بها إجبار الطائف على الاستسلام ، فأشار سلمان الفارسى بقذف حصونها بالمنجنيق . وبمهاجمة تلك الحصون بالدبابات .

رمى المسلمون الطائف بالمنجنيق ، وتقرب بعضهم بحماية الدبابات إلى سور الطائف ليخرقوه ، ولكن أهل الطائف استطاعوا إحباط هذا الهجوم . إذا أحموا قطعاً من الحديد بالنار حتى إذا انصهرت ألقوها على الدبابات الخشبية ، فحرقتها ، فانسحب المسلمون المحتمون بها من تحتها لئلا يحترقوا ، فرمتهم ثقيف بالنبل بعد انكشافهم من حماية الدبابات .

أعلن الرسول ﷺ أنه سيعتق كل عبد يأتيه من الطائف ، ففر إليه حوالى عشرين من عبيد أهلها ، فعرف منهم أن المواد الغذائية كثيرة جداً لدى ثقيف ، كذلك آثر أن يرفع الحصار بعد أن استمر حوالى

شهر واحد ، تاركاً أمر استسلام ثقيف إلى الزمن وخاصة أن الكثيرين من رجالها اعتنقوا الإسلام .

خسائر الطرفين

١ – **المسلمون** : كانت خسائرهم كبيرة جداً فى الأرواح .

٢ – **المشركون** : كانت خسائر المشركين فى الأرواح كبيرة جداً ، أما خسائرهم فى الأموال فكانت:

أربعة وعشرين ألف بعير .

أربعين ألف شاة .

أربعة آلاف أوقية من الفضة .

ستة آلاف نسمة من السبى .

أسباب ترك محاصرة الطائف

يمكن إجمال أسباب ترك المسلمين محاصرة الطائف بما يلى :

١ – قوة حصون الطائف وشجاعة بنى ثقيف ، وتكديس المواد الغذائية فيها ، كل ذلك جعل استسلامها للمسلمين صعبا يحتاج إلى مدة طويلة .

٢ – أصبحت الفترة بين ترك المسلمين المدينة فى رمضان حتى حصار الطائف والبقاء هناك حوالى شهر واحد أصبحت الفترة حوالى شهرين تقريباً ، وهذه المدة ليست قليلة بالنسبة للمسلمين الذين دخلوا الاسلام حديثاً ، مما جعل بعضهم يرغب فى سرعة الرجوع ، كما أن الوقت ثمين بالنسبة للرسول ﷺ لتوطيد دعائم الإسلام .

٣ – قرب حلول الشهر الحرام « ذى القعدة » .

٤ – انتشار الإسلام فى ثقيف مما جعل دخول ثقيف كلها فى الإسلام أكيداً لا يحتاج إلا إلى الوقت .

وقد نظمت مقاومة المسلمين ضد ثقيف بعد إسلام مالك بن عوف ، حيث استعمله الرسول ﷺ على من أسلم من قومه ، فكان يقاتل بهم ثقيفا ، لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه ، حتى ضيق عليهم الخناق ، فالتجأوا إلى الرسول ﷺ وأسلموا .

الغنائـــم

١ – **التكديس** :

بعد انتهاء معركة حنين كدس الرسول ﷺ كافة الغنائم فى موضع « الجعرانة » حتى يتفرغ للمطاردة ، وحصار الطائف ، ثم يعود بعد ذلك إلى توزيعها .

٢ – **التوزيع** :

بقيت الغنائم غير موزعة مدة طويلة لأن الرسول ﷺ كان ينتظر قدوم وفد من هوازن إليه تائبين ، ولكنه اضطر إلى تقسيم الغنائم بعد أن بلغ انتظاره لهوازن حوالى شهر واحد ، دون أن يحضر إليه أحد ،

وخاصة أن الأعراب وحديثى الإسلام أخذوا يلحون على الرسول ﷺ طالبين تقسيم الغنائم .

وشرع بتقسيم الغنائم ، وبدأ بالمؤلفة قلوبهم فأعطاهم أوفى العطاء وأجزله .

أخذ أبو سفيان مائة من الإبل ، وأربعين أوقية من الفضة ، فقال : وابنى معاوية ؟ فمنح مثلها لمعاوية ، فقال : وابنى يزيد ، فمنح مثلها لابنه يزيد .

وأقبل رؤساء القبائل وأصحاب الطمع يتسابقون إلى ما يمكن أخذه ، وشاع أن محمداً ﷺ يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، وأوجس الناس خيفة إن أفشى محمد ﷺ هذه الأعطيات لمن يفدون عليه أن تنقص حصتهم من الغنائم ، فألحوا فى أن يأخذ كل فيئه ، وأكب عليه الأعراب يقولون : يا رسول الله أقسم علينا فيئنا ، فقام الرسول ﷺ إلى جنب بعير فأخذ من سنامه وبرة فجعلها بين أصبعيه ، ثم رفعها فقال : « يا أيها الناس مالى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم »[1] .

وقد كان نصيب المؤلفة قلوبهم من هذه الغنائم أو فى نصيب ، أما المسلمون الأولون من المهاجرين والأنصار فقد كان نصيبهم لا يذكر .

٣ - إعادة السبى :

بعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلماً ، وخيرهم رسول الله ﷺ بين أبناءهم ونساءهم وبين أموالهم ، فاختاروا أبناءهم ونساءهم ، فقال رسول الله ﷺ « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم وإذا ما صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا ، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم » .

نفذت ذلك هوازن ، فأجابهم الرسول ﷺ : « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم » قال المهاجرون وما كان لنا فهو لرسول الله ، وكذلك قال الأنصار .

ولكن الأقرع بن حابس عن تميم ، وعيينة بن حصن عن فزارة ، رفضا إعادة السبى كما رفض عباس بن مرداس ، هنالك قال النبى ﷺ (أما من تمسك منكم بحقه من السبى فله بكل إنسان ستة فرائض من أول سبى أصيبه) .

وهكذا رد المسلمون كافة السبايا إلى هوازن .

المشركون نجس

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ

(١) أخرجه أبو داود فى الجهاد (١٢١ ، ١٤٩) . والنسائى فى الفيء . والإمام مالك فى الجهاد (٢٢) . والإمام أحمد فى (٤ : ١٢٨) وفى (٥ : ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٢٣٦) .

لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

المفردات : ﴿ **النجس** ﴾ : من نجس الشيء إذا كان قذراً غير نظيف ، والاسم النجاسة ، وقال الراغب : النجاسة : القذارة ، وهى ضربان : ضرب يدرك بالحاسة ، وضرب يدرك بالبصيرة ، وهذا ما وصف الله به المشركين فقال ﴿ **إنما المشركون نجس** ﴾ ويقال نجسه ، إذا جعله نجسا ، ونجسه : أزال نجسه ومنه تنجيس العرب ، وهو شيء كانوا يفعلونه من تعليق عوذة على الصبى ليدفعوا عنه نجاسة الشيطان ، والناجس والنجيس ، داء خبيث لا دواء له ا هـ . ﴿ **والعيلة** ﴾ : الفقر ، يقال عال الرجل يعيل عيلا وعيلة إذا افتقر فهو عائل ، وأعال : كثر عياله ، وهو يعول عيالا كثيرين : أى يمونهم ويكفيهم أمر معاشهم . ﴿ **والفضل** ﴾ : العطاء والتفضل . ﴿ **ولا يدينون دين الحق** ﴾ : يقال : فلان يدين بكذا إذا اتخذه ديناً وعقيدة . ﴿ **ودين الحق** ﴾ : هو الدين الذى أنزله الله على أنبيائه . ﴿ **والجزية** ﴾ : ضرب من الخراج يضرب على الأشخاص لا على الأرض ، وجمعها جزى (بالكسر) . ﴿ **واليد** ﴾ : السعة والقدرة . ﴿ **والصغار والصغر** ﴾ : ضد الكبر ويكون فى الأمور الحسية والمعنوية ، والمراد به هنا الخضوع لأحكام الإسلام وسيادته التى بها تصغر أنفسهم لديهم بفقد الملك وعجزهم عن مقاومة الحكم . ﴿ **عزير** ﴾ : هو الذى يسميه أهل الكتاب عزرا ، وينتهى نسبه إلى العازار بن هارون عليه السلام . ﴿ **ويضاهئون** ﴾ : أى يشابهون ويحاكون . ﴿ **وقاتلهم الله** ﴾ : جملة أصلها الدعاء ثم كثر استعمالها حتى قيلت على وجه التعجب فى الخير والشر وهم لا يريدون الدعاء . ﴿ **والإفك** ﴾ صرف الشيء عن وجهه ، يقال أفك فلان أى صرف عقله عن إدراك الحقائق ، ورجل مأفوك العقل . ﴿ **والأحبار** ﴾ : واحدهم حبر (بالفتح والكسر) وهو العالم من أهل الكتاب . ﴿ **والرهبان** ﴾ : واحدهم راهب ، وهو لغة الخائف ، وعند النصارى هو المتبتل المنقطع للعبادة . ﴿ **والإرادة** ﴾ : القصد إلى الشيء ، وقد تطلق على يفضى إليه وإن لم يرده فاعله فيقال فى الرجل المسرف المبذر : يريد أن يخرب بيته أى أن تبذيره يفضى إلى ذلك فكأنه يقصده ، لأن فعله فعل من يقصد ذلك . ﴿ **ونور الله** ﴾ : هو

دين الإسلام . ﴿ **وأظهره على الشيء** ﴾ : جعله فوقه مستعليا عليه .

قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا** ﴾ .

فى هذه الآية الكريمة يخاطب الله تعالى عباده المؤمنين الطاهرين الصادقين ، الطاهرين قلوباً ، الصادقين عقيدة ، فيخبرهم بأن المشركين نجس فى عقيدتهم وفى قلوبهم فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وقد كان هذا الحكم ضمن القرارات التى أعلنها الإسلام فى العام التاسع من الهجرة ، عندما توجه أبو بكر الصديق على رأس البعثة الإسلامية إلى مكة لأداء الحج ، ولحق به على بن أبى طالب ، فأعلنوا أنه لا يحج بعد العام مشرك ، ولن يدخل الجنة كافر ، ولن يطوف بالبيت عريان .

قال الإمام أبو عمرو بن الأوزاعى : كتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين ، وأتبع نهيه قول الله تعالى ﴿ **إنما المشركون نجس** ﴾ .

وقال عطاء : الحرم كله مسجد لقوله تعالى ﴿ **فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا** ﴾ .

وقد دلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما ورد فى الصحيح (المؤمن لا ينجس)[1] .

وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات ، لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب ، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم .

وقال أشعث : عن الحسن : من صافحهم فليتوضأ . رواه بن جرير .

قوله تعالى ﴿ **وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم** ﴾ .

هذا النص الكريم بمنزلة الجواب عن سؤال قد تلوكه الألسنة ، كأن سائلا قال : إننا بعد مقاطعة المشركين فستؤدى تلك المقاطعة إلى كساد التجارة والركود الإقتصادى ، فطمأن الله القلوب ، بأنه العليم بمصالح العباد ، الحكيم المنزه عن العبث ، أمره حكمة ، ونهيه مصلحة ، لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، فلا يمكن أن يأمر بأمر فيه ضرر بعباده .

فإن خفتم أيها المسلمون فقرا ، أو ضيقا ماليا ، بعد مقاطعة المشركين ، فسوف يغنيكم الله من فضله ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا ﴾[2] .

وقد صدق الله وعده ، وأنجز عهده ، فأجرى فى أرض المسلمين ذلك الذهب الأسود فى عروق الأرض ، فالبترول هو عصب الحروب ، وغذاء الصناعات ، والورقة الرابحة على مائدة الدبلوماسية

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز (٨) وفى الغسل (٢٣، ٢٤) . ومسلم فى الحيض (١١٥) . والنسائى فى الطهارة (١٧١) . وابن ماجه فى الطهارة (٨٠) . والإمام أحمد فى (٢ : ٢٣٥ ، ٣٨٢) وفى (٥ : ٣٨٤) .

(٢) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الطلاق .

العالمية ، هذا بالإضافة إلى مختلف المعادن المدفونة فى تلكم الأرض المباركة . قال ﷺ : (التمسوا الرزق فى خبايا الأرض) .

فالأمة الاسلامية أغنى أمة على وجه البسيطة ، إنها صاحبة العقيدة الصحيحة ، تملك الثروة البشرية ، والموقع الجغرافى الممتاز ، والأرصدة والطاقة والمعادن ، فلا عرفت قدرها ، وشكرت أنعم الله عليها ، وجاهدت فى سبيل إعلاء كلماته .

تباركت ربنا وتعاليت ، فلك الحمد على ما قضيت ، ولك الشكر على ما أنعمت به علينا وأوليت .

قوله تعالى ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾ .

استدل بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب أو من أشبههم كالمجوس ، كما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر ، وهذا مذهب الشافعى وأحمد وقال أبو حنيفة رحمه الله : بل تؤخذ من جميع الأعاجم سواء كانوا من أهل الكتاب أو المشركين ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب ، وقال الإمام مالك : بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابىّ ومجوسىّ ووثنىّ وغير ذلك .

وإذا كان الإسلام قد فرض الجزية على غير المسلمين فإنما فرضها على القادرين منهم ، أما غير القادرين فقد تجاوز الإسلام عنها بالنسبة لهم ، بل إن الجزية قد تختلف باختلاف المقدرة ، فقد تكون ثمانية وأربعين درهما فى العام ، وقد تكون أربعة وعشرين ، وقد تكون اثنى عشر .

وقد اقتضى منطق العدالة الاسلامية أن يفرض الزكاة على المسلمين ، والجزية على غيرهم ، وليس فى هذا أى ظلم أو إجحاف ، فقد قرر الله تعالى أنه لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ، وإنما هذه الجزية بمنزلة ما يسمى فى العصر الحديث بضريبة الدفاع ، فإن الجيش الإسلامى يقوم بالدفاع عن رعاياه ، فأى ظلم فى هذا حتى ترتفع الأصوات بالباطل ، وتعلن الحرب الشعواء على الإسلام .

والله جلت قدرته أمر بقتال هؤلاء إن امتنعوا عن دفع الجزية ، لأنهم عصاة متمردون لا عذر لهم ، وكافرون برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين ، ولو أنهم أقاموا التوارة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم ، لعلموا أن الله تعالى قد بشر ببعثة نبى الهدى محمد ﷺ .

قال تعالى ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاةوالذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروهواتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾[1] .

(١) الآيتان ١٥٦ ، ١٥٧ من سورة الأعراف .

﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾[٢] وقال تعالى ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً . والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[٣] .

سئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة : فقال : والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن . « يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزا للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفوا ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح بها عيوناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً ﴾[٤] . قال تعالى لرسوله فى حديثه القدسى : [وعزتى وجلالى : لو سلكوا إلىّ كل طريق واستفتحوا على كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد] .

الله أكبر إن ديـــن محمـــــد   وكتابـــه أقـــوى وأقـــوم قيـــلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده   طلع الصباح فأطفئوا القنديـلا

إن الذين كفروا بمحمد ﴿ **لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق** ﴾ لأن الكفر بمحمد ﷺ كفرٌ بالله ، وتكذيب بكلامه ، وكيف يحرمون ما حرم الله ورسوله ، وهم لا يؤمنون بالله ولا برسوله ، وكيف يدينون دين الحق ، وقد كفروا بالله الحق ، لقد قبل الإسلام منهم الجزية عن يد أى عن قدرة فلا يدفعها العاجز وهم صاغرون ، خاضعون لأحكام الله ، فالدينونة لله والدين كله لله لا رب سواه ، إن الحكم إلا لله ، وحده لا شريك له إذا حكم عدل ، وإذا قال صدق ، وإذا وعد وفى ، وإذا عاهد أنجز ، يقول صدقاً ، ويحكم عدلاً ﴿ والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء إن الله هو السميع البصير ﴾[٥] .

قوله تعالى ﴿ **وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون** ﴾ .

(١) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف . (٢) الآية ٢٩ من سورة الفتح . (٣) الآيات ١٥٠ - ١٥٢ من سورة النساء .
(٤) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ٤٨ : ٣) وفى البيوع (٥٠) . والدرامى فى المقدمة (٢) . والإمام أحمد فى (٢ : ١٧٤) .
(٥) الآية ٢٠ من سورة غافر .

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقالتهم هذه المقالة الشنيعة ، والفرية على الله تعالى ، فأما اليهود فقالوا فى العزير إنه ابن الله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وذكر السدى وغيره أن الشبهة التى حصلت لهم فى ذلك أن العمالقة لما غلبت على بنى إسرائيل ، فقتلوا علماءهم ، وسبوا كبارهم ، بقى العزير يبكى على بنى إسرائيل وذهاب العلم منهم حتى سقطت جفون عينيه ، فبينما هو ذات يوم إذمر على جبانة ، وإذ امرأة تبكى عند قبر وهى تقول : واطعماه واكاسياه فقال لها : ويحك من كان يطعمك قبل هذا ؟ قالت : الله . قال : فإن الله حى لا يموت قالت : يا عزيز فمن كان يعلم قبر العلماء قبل بنى اسرائيل ؟ قال : الله ، قالت : فلم تبكى عليهم ؟ فعرف أنه شىء قد وعظ به .

ثم قيل له : اذهب إلى نهو كذا فاغتسل منه ، وصل هناك ركعتين فإنك ستلقى هناك شيخا إن أطعمك فكله ، فذهب ففعل ما أمر به ، فإذا الشيخ فقال له : افتح فمك ففتح فمه فألقى فيه شيئاً كهيئة الجمرة العظيمة ثلاث مرات ، فرجع عزير وهو من أعلم الناس بالتوارة . فقال يا بنى اسرائيل : قد جئتكم بالتوراة فقالوا : يا عزير ما كنت كذاباً فعمد فربط على أصبع من أصابعه قلما وكتب التوراة بأصبعه كلها ، فلما تراجع الناس من عدوهم ، ورجع العلماء أخبروا بشأن عزير ، فاستخرجوا النسخ التى كانوا أودعوها فى الجبال ، وقابلوها بها ، فوجدوا ما جاء به صحيحاً فقال بعض جهلتهم : إنما صنع هذا لأنه ابن الله .

فأى ظلم أعظم من هذا الجرم أن ينسبوا لله ولداً ، كما قالت النصارى عن المسيح ابن مريم ، فقد نسبوه لله تعالى وجل جلال الله ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم * ذلكم الله ربكم لا آله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل * لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير * قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ﴾(١) .

﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ، قيماً لينزر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا * ماكثين فيه أبدا * وينذر الذى قالوا اتخذ الله ولدا * ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾(٢) .

﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئاً إدّا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا * أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا * إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾(٣) .

لقد كذب الله تعالى هؤلاء الضالين المضلين ولعنهم فقال ﴿ **ذلك قولهم بأفواههم** ﴾ أى كلام يقال بالألسنة ولا حقيقة له ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض إن

---

(١) الآيات ١٠١ – ١٠٤ من سورة الأنعام . (٢) الآيات ١ – ٥ من سورة الكهف . (٣) الآيات ٨٨ – ٩٥ من سورة مريم .

عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله مالا تعلمون * قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾[1] .

إنهم يضاهئون ويشابهون قول الذين كفروا من قبل من مشركى العرب وغيرهم من الوثنيين .

﴿ **قاتلهم الله** ﴾ وهذا دعاء عليهم باللعنة والطرد من رحمة الله .

﴿ **أنى يؤفكون** ﴾ أى كيف يصرفون عن الحق . جل جلال الله فقد تقدس عن الشريك ذاته ، وتنزهت عن مشابهة الأغيار صفاته .

قوله تعالى : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلٰهاً واحداً لا إلٰه إلا هو سبحانه عما يشركون** ﴾ .

روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير من طرق عن عدى بن حاتم رضى الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام وكان قد تنصر فى الجاهلية ، فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم منّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغبته فى الإسلام ، وفى القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدى إلى المدينة وكان رئيساً فى قومه طىء ، وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم ، فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله ﷺ وفى عنق عدى صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ قال : فقلت إنهم لم يعبدوهم فقال « بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » وقال رسول الله ﷺ « يا عدى ما تقول ؟ أيضرك أن يقال الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ما يضرك . أيضرك أن يقال لا إله إلا الله فهل تعلم إلٰها غير الله ؟ ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق قال : فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال ﴿ إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون ﴾[2] .

وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما فى تفسير ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله** ﴾ إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا .

وقال السدى : استنصحوا الرجال ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا إلٰها واحدا** ﴾ أى الذى إذا حرم الشىء فهو الحرام ، وما حلله فهو الحلال ، وما شرعه اتبع ، وما حكم به نفذ . ﴿ **لا إلٰه إلا هو سبحانه عما يشركون** ﴾ أى تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد لا إلٰه إلا هو ولا رب سواه .

قوله تعالى ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون** ﴾ .

(١) الآيات ٦٨ - ٧٠ من سورة يونس .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى (١ : ٢٧ ، ٥٣) .

هذا وعدٌ من الله للجماعة المؤمنة بحفظ الدين وصيانة الدعوة ، فمن جال بخاطره أن يطفىء نور الله بنفخة من فمه فليطفىء الشمس فى علاها ، إن الناس جميعاً إذا تحولوا إلى كناسين ليثيروا التراب على السماء فسوف يثيرونه على أنفسهم ، وتبقى السماء هى السماء ضاحكة السن ، بسامة المحيا . إن فى قوله تعالى ﴿ يأبى الله إلا أن يتم نوره ﴾ ما يدل على قوة الله وقدرته ﴿ وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليماً قديرا ﴾(١) .

إن سنة الله اقتضت أن تسير القافلة والذئاب تعوى ، وهل يضر السحاب نبح الكلاب ، نعم سيتم الله نوره ولو كره الكافرون ولو حقد الحاقدون ، فالحق أحق أن يتبع ، ودولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة ﴿ بَل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾(٢) ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾(٣) .

قوله جل شأنه ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾ .

إنه النبى محمد الذى بعثه الله هادياً ومبشراً ونذيراً ، إنه الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة والسراج المنير ، الهادى إلى صراط الله رب العالمين ، أرسله بالهدى ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾(٤) ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾(٥) .

كتاب لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا تمله الأتقياء ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا تبلى جدته ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم .

ولقد أرسل الله رسوله بدين الحق وهو الإسلام وقد أظهره الله على الدين كله ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾(٦) .

والإسلام هو كلمة الله العليا فمن ابتغى الهدى فى غيره ضل وهوى ، أظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴿ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ﴾(٧) .

فكم زالت رياض من رباها ... وكم بادت نخيلٌ فى البوادى
ولكن نخلة الإسلام تنمو ... على مر العواصف والعوادى
ومجدك فى حمى الإسلام باقٍ ... بقاء الشمس والسبع الشداد

(١) الآية ٤٤ من سورة فاطر .
(٢) الآية ١٨ من سورة الأنبياء .
(٣) الآية ٨١ من سورة الإسراء .
(٤) الآية ٢ من سورة البقرة .
(٥) الآية ٩ من سورة الحجر .
(٦) الآية ٨٥ من سورة آل عمران .
(٧) الآية ١١٩ من سورة آل عمران .

الأحبار والرهبان وكنز المال

*يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

المفردات : ﴿ **أكل الأموال** ﴾ : يراد به أخذها والتصرف فيها بسائر وجوه الانتفاع . ﴿ **والصد** ﴾ : المنع . ﴿ **وسبيل الله** ﴾ : هى طريق معرفته الصحيحة وعبادته القويمة وأساس ذلك التوحيد والتنزيه . و ﴿ **الكنز** ﴾ هنا : خزن الدنانير والدراهم فى الصناديق ، أو دفنها فى التراب مع الامتناع عن الإنفاق فيما شرعه الله من البر والخير .و ﴿ **يحمى عليها** ﴾ : أى تضرم عليها النار الحامية حتى تصير مثلها .

يخبر سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن هناك من علماء اليهود ، وعباد النصارى من يأكلون أموال الناس بالباطل ، وأوجه الباطل كثيرة منها : الرشوة والربا والغصب والسرقة ، ويصدون عن سبيل الله وذلك ببيعهم الآخرة بالدنيا وتضليل العامة ، وعدم قول الحق . قال ابن المبارك :

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

وإذا كان القرآن الكريم يحدثنا عن علماء اليهود وعباد النصارى ففى حديثه عنهم تحذير لنا معشر المسلمين – قال تعالى : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾[1] .

جاء فى الحديث الصحيح « لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة » قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال « فمن ؟ » وفى رواية أخرى قالوا : فارس والروم ؟ قال : (فمن الناس إلا هؤلاء ؟)[2] .

والحاصل التحذير من التشبه بهم فى أقوالهم وأحوالهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ **ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله** ﴾ وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم فى الناس يأكلون أموالهم بذلك كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف ، ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تجىء إليهم ، فلما بعث رسول الله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم ، طمعا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات فأطفأها الله بنور النبوة ، وسلبهم إياها وعوضهم الذل والصغار وباءوا بغضب من الله تعالى .

---

(١) الآية ١٦ من سورة الحديد.

(٢) أخرجه الترمذى فى الفتن (١٨) . والإمام أحمد فى (٥ : ٢١٨ ، ٣٤٠) .

ولما كان الناس يتبعون علماء الدين والعباد وأصحاب الأموال ، فقد حذر الله تعالى الأغنياء من كنز المال قال سبحانه : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ .

قال ابن عمر : الكنز هو المال الذى لا تؤدى زكاته . وما أدى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين وما كان ظاهرا لا تؤدى زكاته فهو كنز .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أيما مال أديت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفونا فى الأرض ، وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كنز يكوى به صاحبه وإن كان على وجه الأرض .

وروى البخارى من حديث الزهرى عن خالد بن أسلم قال : (خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال : هذا قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله طهرة للأموال) .

ولما كان الإسلام دين الاعتدال ، فقد دعا النفوس إلى التزام الصراط المستقيم ، لا إفراط ولا تفريط ، ولا غلو ولا تقصير .

كما حذر من السقوط فى بريق الذهب والفضة ، والارتماء فى أحضان المادة .

قال ﷺ : (ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضا وينكركم أهل السماء عند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه . ثم تلا قوله تعالى : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[1]) .

وقال ﷺ : (تبا للذهب ، وتبا للفضة) يقولها ثلاثا ، فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : فأى مال نتخذ ؟ فقال عمر رضى الله عنه : أنا أعلم لكم ذلك فقال : يا رسول الله إن أصحابك قد شق عليهم وقالوا فأى المال نتخذ ؟ قال :(لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة تعين أحدكم على دينه)[2] .

وعن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾ كبر ذلك على المسلمين وقالوا : ما يستطيع أحد منا يدع لولده مالا يبقى بعده ، فقال عمر : أنا أفرج عنكم ، فانطلق عمر وأتبعه ثوبان فأتى النبى ﷺ فقال : يا نبى الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية . فقال رسول الله ﷺ : « إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم » قال فكبر عمر ثم قال له النبى ﷺ (ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة التى إذا نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته)[3] .

وقال رسول الله ﷺ : (إذا كنز الناس الذهب والفضة ، فاكنزوا هؤلاء الكلمات : اللهم إنى

---

(١) أخرجه البخارى فى المغازى (١٢ ، ١٧) وفى الجهاد (٣٨) وفى الجزية (١) وفى الرقاق (٧) . وأخرجه مسلم فى الزكاة (١٢١) وفى الزهد (٦) . والترمذى فى القيامة (٢٨) . وابن ماجه فى الفتن (١٨) . والإمام أحمد فى (٥ : ٤٨ ، ٥١) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى (٥ : ٣٦٦) . (٣) أخرجه أبو داود فى الزكاة (٣٢) . وابن ماجه فى النكاح (٥) .

أسألك الثبات فى الأمر ، والعزيمة على الرشد ، وأسألك حسن عبادتك وأسألك قلبا سليما ، وأسألك لسانا صادقا وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك لما تعلم ، إنك أنت علام الغيوب ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ **يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾ .

قالوا : من أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله عذب به . وهؤلاء لما أحبوا المال وكنزوه وقدموه على طاعة الله ولم ينفقوه فى سبيله ، كان وبالا عليهم فى الآخرة . فعند ما يموت ابن آدم يصاب بمصيبتين : الأولى أنه يترك ماله كله . والثانية أنه يسأل عنه كله .

ولذلك لما حضرت محمد بن كعب القرظى الوفاة وكان غنيا ، قالوا له : كم تركت لأولادك من المال ، قال : « ادخرت مالى لنفسى عند ربى ، وادخرت ربى لأولادى » .

يا ابن آدم :

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها ... فالموت لاشك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غدا رضوان خازنها ... والجار أحمد والرحمن ناشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها

هذه الأموال تُصهر فى نار جهنم فتكوى بها الجباه المتجبرة ، والجنوب التى طالما تمرغت فى الحرير ، والظهور التى طالما نامت على النعيم ، ونسيت البؤساء والمساكين ، ثم يقال لهم تبكيتا وتقريعا : هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ، كما فى قوله تعالى : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾[2] وكما فى قوله جل شأنه ﴿ **فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ إذ البشارة عادة إخبار بما يسر ، لكنها جاءت هنا على طريقة التقريع والتوبيخ .

قال سفيان عن الأعمش عن عبد الله بن عمرو بن مرة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود : « والذى لا آله غيره لا يكوى عبد بكنز فيمس دينار دينارا ولا درهم درهما ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حدته » .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال : « بلغنى أن الكنز يتحول يوم القيامة شجاعا يتبع صاحبه وهو يفر منه ويقول : أنا كنزك . لا يدرك منه شيئا إلا أخذه » .

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير بسنده عن ثوبان أن رسول الله ﷺ كان يقول : « من ترك بعده كنزا ، مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يتبعه ويقول : ويلك ما أنت ؟ فيقول : أنا كنزك الذى

(١) أخرجه النسائى فى السهو (٦١) . والترمذى فى الدعوات (٢٣) . والإمام أحمد فى (٤ : ١٢٣ ، ١٢٥) .
(٢) الآية ٤٩ من سورة الدخان .

تركته بعدك ولا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها ثم يتبعها سائر جسده » رواه ابن حبان فى صحيحه .

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (ما من رجل لا يؤدى زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد ثم يرىٰ سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار)[١] .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأبى ذر : (ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهبا يمر على ثلاثة أيام وعندى منه شىء إلا دينار أرصده لدين)[٢] .

وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألق الله فقيرا ولا تلقه غنيا » قال : يا رسول الله كيف لى بذلك ؟ قال « ما سئلت فلا تمنع ، وما رزقت فلا تخبأ » قال يا رسول الله كيف لى بذلك ؟ قال رسول الله ﷺ : « هو ذاك وإلا فالنار » .

قال رسول الله ﷺ : « لا يوضع الدينار على الدينار ، ولا الدرهم على الدرهم ولكن يوسع جلده فيكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

عدة الشهور والنسىء

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

المفردات : ﴿ **الشهور** ﴾ : واحدها شهر وهو اسم للهلال سميت به الأيام . و ﴿ **الكتاب** ﴾ : هو اللوح المحفوظ كما قال تعالى ﴿ علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ . و ﴿ **الحرم** ﴾ : واحدها حرام من الحرمة بمعنى التعظيم . و ﴿ **الدين** ﴾ : الشرع والقيم أى الصحيح المستقيم الذى لا عوج فيه . و ﴿ **كافة** ﴾ : أى جميعا . و ﴿ **النسىء** ﴾ : من نسأ الشىء ينسؤه نسأ . و ﴿ **منسأة** ﴾ : إذا أخره أى الشهر الذى أنسىء تحريمه : أى أخر عن موضعه .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (٢ : ٢٦٢ ، ٢٧٦) .

(٢) أخرجه البخارى فى التمنى (٢) وفى الاستئذان (٣٠) وفى الرقاق (١٤) . وأخرجه مسلم فى الزكاة (٣١ ، ٣٢) وابن ماجه فى الزهد (٨) والأمام أحمد فى (٢ : ٢٥٦ ، ٣١٦ ، ٣٤٩ ، ٣٩٩ ، ٤١٩ ، ٤٥٨ ، ٤٥٧ ، ٤٦٧ ، ٥٣٠) وفى (٥ : ١٤٩ ، ١٥٢) .

هذه الآيات عود على بدء إلى الكلام فى أحوال المشركين وقد كان الكلام فى قتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية من قبيل الاستطراد ، اقتضاه ما قبله ، وهو حكم قتال المشركين ومعاملتهم .

﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ﴾ .

أى إن مبلغ عدة الشهور اثنا عشر شهرا فيما كتبه الله ، وأثبته من نظام سير القمر ، وتقديره منازل ، منذ خلق السموات والأرض على هذا الوضع المعروف لنا من ليل ونهار إلى الآن .

والمراد بقوله : ﴿ **يوم خلق السموات والأرض** ﴾ الوقت الذى خلقهما فيه باعتبار تمامه ونهايته فى جملته ، وهو ستة أيام من أيام التكوين باعتبار تفصيله ، وخلق كل منهما وما فيهما .

وقوله : ﴿ **فى كتاب الله** ﴾ أى فى نظام الخلق والتقدير والسنن الإلٓهية فيه ، أو فى حكمه التشريعى كحرمة الأشهر الحرم ، وكون الحج أشهراً معلومات ، وكون ما يتعلق بالشهور من الفرائض والسنن كالحج والصيام ، وعدة المطلقات والرضاع فالمعتبر فيه الأشهر القمرية ومن حكمة ذلك أنه يجعل الصيام والحج يدور فى جميع أجزاء السنة ، ومنها ما يشق فيه أداؤهما ، ومنها ما يسهل فيه ذلك .

﴿ **منها أربعة حرم** ﴾ أى منها أربعة فرض الله احترامها وحرم فيها القتال على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، ونقلت العرب ذلك عنهما بالتواتر القولى والعملى ، وإن كانت قد أخلت بذلك أحيانا اتباعاً لأهوائها وهذه الأشهر منها ثلاثة متواليات وهى : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم وواحد فرد ، وهو رجب .

روى أحمد عن أبى بكرة أن النبى ﷺ خطب فى حجة الوداع بمنى فى أوسط أيام التشريق قال (ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان)

ثم قال : (ألا أى يوم هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال : أليس يوم النحر . قلنا : بلى.ثم قال : أى شهر هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . ثم قال : أليس ذا الحجة ؟ قلنا : بلى.ثم قال : أى بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . قال : أليست البلدة ؟ قلنا : بلى قال : فإن دماءكم وأموالكم ، وأحسبه قال . وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا لا ترجعوا بعدى ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض . ألا هل بلغت ؟ ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه ﴾[١] .

---

(١) اخرجه البخارى فى العلم (٣٠ ، ٣٧) وفى الزكاة (٣١) وفى الحج (١٣٢) . ومسلم فى الإيمان (٣٧٨) . وأبو داود فى الأمارة (١١) . وابن ماجه فى المناسك (٧٦) . والإمام أحمد فى (١ : ٢٣٠) وفى (٣ : ٨٠ ، ١٠٩ ، ٢٠٢) وفى (٧٦١٤ ، ١٦٨) .

﴿ **ذلك الدين القيم** ﴾ أى ما ذكر من عدة الشهور وتقسيمها إلى حرم وغيرها ، وعدد الحرم منها ، هو الحق الذى يدان الله تعالى به دون النسيء .

وقد يكون المعنى ــ ذلك هو الشرع الصحيح الذى كان عليه إبراهيم وإسماعيل فى الحج وغيره ، وما يتعلق بالأشهر من الأحكام ، وقد تمسكت العرب به وراثة منهما ، حتى إن الرجل يلقى فيها قاتل أبيه أو أخيه فلا يعرض له بسوء ، على شدتهم فى أخذ الثأر ، وضراوتهم بسفك الدماء .

﴿ **فلا تظلموا فيهن أنفسكم** ﴾ أى فلا تظلموا فى الأشهر الحرم أنفسكم باستحلال حرامها ، فإن الله عظمها وعظم حرمتها .

وقد خص بعض الأزمنة وبعض الأمكنة بأحكام من العبادات تقتضى ترك المحرمات فيها ، تنشيطا للنفوس على زيادة العناية بما يزكيها ويطهرها ، فقد جرت عادة الإنسان أن يسأم الاستمرار على حال واحدة تشق عليه .

ومن ثم جعل الله العبادات الدائمة خفيفة لا مشقة فى أدائها ، كالصلوات الخمس ، وخص يوم الجمعة بوجوب الاجتماع العام لصلاة ركعتين ، وسماع خطبتين ، تذكيرا وموعظة حسنة ، تقوى فى المؤمن ، حب الخير والتعاون على البر والتقوى .

وخص رمضان بوجوب صيامه فى كل سنة .

وخص أياماً معدودات من ذى الحجة بأداء مناسك الحج وجعل ما قبلها وما بعدها من الأيام الحرم استعداداً للسفر لأداء النسك .

وحرم مكة وما حولها فى جميع السنة لتأمين الحج والعمرة التى تؤدى فى كل وقت ، وحرم رجب فى وسط السنة لتقليل شرور القتال وتخفيف أوزاره ، ولتسهيل السفر لأداء العمرة فيه . ﴿ **وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة** ﴾ .

أى قاتلوهم جميعا وكونوا يدا واحدة على دفع عدوانهم ، وكف أذاهم ، كما يقاتلونكم كذلك ، ذاك أنهم إنما يقاتلونكم لدينكم وإطفاء نوره ، لا للانتقام ولا للعصبة ، ولا لكسب المال كما هو دأبهم فى قتال قويهم لضعيفهم ، فأنت حينئذ أجدر وأولى بالاتحاد لدفع العدوان ، وجعل كلمة الله هى العليا ، وكلمة الشيطان هى السفلى والله عزيز حكيم .

﴿ **واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾ بنصرهم ومعونتهم وتوفيقهم لما فيه خيرهم وصلاحهم ، فمن يتق الظلم والعدوان فى الأرض ، وأسباب الفشل والخذلان فى القتال ، من تفرق الكلمة واختلاف الأهواء ومخالفة سنن الله فى الاجتماع ، يكن الله معه ، ومن كان الله معه فلا يغلبه أحد ﴿ **إنما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله** ﴾ .

المراد بالنسيء تأخير حرمة شهر إلى آخر .

بيان هذا أن العرب ورثت فى مكة من إبراهيم وإسماعيل تحريم القتال فى الأشهر الحرم ، لتأمين الحج وطرقه ، ولما طال عليهم الأمر غيروا وبدلوا فى المناسك ، وفى تحريم الأشهر ، ولاسيما المحرم إذ كان يشق عليهم ترك القتال وشن الغارة ثلاثة أشهر متواليات ، فأحلوا شهر المحرم وأنسأوا تحريمه إلى صفر ، لتبقى الأشهر الحرم أربعة كما كانت ، وفى ذلك مخالفة للنص ولحكمة التحريم .

وقد كان من عادتهم فى ذلك أن يقوم رجل من كنانة فى أيام منى ، حيث يجتمع الحجيج فيقول : أنا الذى لا يرد لى قضاء . فيقولون : صدقت ، فأخر عنا حرمة المحرم واجعلها فى صفر فيحل لهم المحرم ، وبذلك يجعل الشهر الحرام حلالا ، ثم صاروا ينسئون غير المحرم ، ويسمون النسىء باسم الأصل ، فتتغير أسماء الشهور كلها .

وبذلك يعلم أن النسىء تشريع دينى ملتزم ، غيروا به ملة إبراهيم اتباعا للهوى وسوء التأويل ، ومن ثم سماه الله زيادة فى الكفر ، أى إنه كفر بشرع دين لم يأذن به الله زائد على شركهم بالله وكفرهم به ، إذ حق التشريع له وحده ، فمنازعته فى ذلك شرك فى ربوبيته ، وهم يضلون به سائر الكفار الذين يتبعونهم فيها ، ويظنون أنهم لم يخرجوا به عن ملة ابراهيم ، إذا واطأوا عدة ما حرم الله من الشهور فى ملته ، ولم يزيدوا ولم ينقصوا وإن قدموا وأخروا مع أن المقصد فى ذلك العدد ، والتخصيص لا مجرد العدد ، وإذ لم يفعلوا ذلك فقد استحلوا ما حرم الله .

﴿ **زين لهم سوء أعمالهم** ﴾ أى زين لهم الشيطان أعمالهم ، بهذه الشبهة الباطلة إذ اكتفوا بالعدد ولم ينقصوا منه شيئاً ولم يدركوا حكمة التخصيص بالأشهر المعينة .

﴿ **والله لا يهدى القوم الكافرين** ﴾ إلى الحكمة فى أحكام شرعه ، وجعلها مبنية على مصالح الناس فى دينهم ودنياهم ، أفراداً وجماعات ، فالهداية الموصلة إلى سعادة الدارين من آثار الإيمان ، والعمل الصالح ، كما قال تعالى ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾[1] .

وأما الكافرون فيتبعون أهواءهم ، وما يوسوس لهم به الشيطان ، فيوقعهم فى الشقاء والخسران .

إيقاظ الهمم بالجهاد

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ

(١) الآية ٩ من سورة يونس .

إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

المفردات : ﴿ **النفر والنفور** ﴾ : الفرار من الشيء أو الإقدام عليه بخفة ونشاط يقال نفرت الدابة والغزال نفوراً ونفر الحجيج من عرفات نفراً واستنفر الملك العسكر إلى القتال وأعلن النفير العام فنفروا خفافاً وثقالا . و ﴿ **التثاقل** ﴾ : التباطؤ وهو من الثقل المقتضى للبطء . و ﴿ **المتاع** ﴾ : ما يتمتع به من لذات الدنيا . و ﴿ **الغار** ﴾ : النقب العظيم فى الجبل والمراد به هنا غار جبل ثور . و ﴿ **الصاحب** ﴾: هو أبو بكر رضى الله عنه . و ﴿ **السكينة** ﴾ : سكون النفس واطمئنانها وهو ضد الإنزعاج والإضطراب . و ﴿ **كلمة الله** ﴾ : هى التوحيد . و ﴿ **كلمة الذين كفروا** ﴾ : هى الشرك والكفر .

الكلام من هنا إلى آخر السورة كلام فى غزوة تبوك ومالابسها من هتك ستر المنافقين ، وضعفاء الإيمان ، وتطهير المؤمنين من عوامل الشقاق ، إلا آيتين جاءتا فى آخرها ، وإلا ما جاء فى أثنائها من بعض الحكم والأحكام جرياً على سنة القرآن فى أسلوبه الذى اختص به .

ومناسبة الآيات لما قبلها أن الكلام السابق كان فى حكم القتال مع اليهود ، وبين حقيقة أحواله من خروجهم من هداية الدين فى العقائد والأعمال والفضائل التى تهذب النفوس وتزكيها ، والكلام هنا فى غزوة تبوك ، والمراد بها قتال الروم وأتباعهم من عرب الشام وجميعهم نصارى ، وبهذا استبان ارتباط الآيات بما قبلها .

وتبوك موضع فى منتصف الطريق بين المدينة ودمشق ، فهى تبعد عن الأولى ستمائة وعشرة كيلو مترات ، وعن الثانية ٦٩٢ كم .

وكان السبب فى هذه الغزوة ما بلغ المسلمين من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة ، من أن الروم جمعت جموعاً معهم لخم وجذام وغيرهم من متنصرة العرب ، حتى وصلت طلائعهم إلى البلقاء ، بإمرة قائد عظيم منهم يدعى قباذ ، وعدد جنده أربعون ألفا ، فندب النبى الناس بالخروج لقتالهم ، وأعلمهم الجهة التى يغزونها .

وكان عثمان قد جهز عيراً إلى الشام للتجارة ، وقال : يا رسول الله هذا مائة بعير بأقتابها وأحلاسها ، ومائة أوقية من الفضة. فقال النبى ﷺ : (ما يضر عثمان ما عمل بعدها)[1] .

ثم خرج لمقابلتهم ولما لم يجد من يقاتله عاد ولم يهاجم شيئاً من بلاد الشام وكان ذلك فى رجب سنة ٩ هـ « تسعة » .

(١) أخرجه الترمذى فى المناقب (١٨) . والإمام أحمد فى (٥ : ٦٣) .

﴿ **يأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض** ﴾ .

الخطاب للمؤمنين فى جملتهم ، تربية لهم بما لعله وقع من منافقيهم وضعفائهم ، أى يأيها الذين آمنوا ما الذى عرض لكم مما يخل بالإيمان أو بكماله من التثاقل والتباطؤ عن النهوض بما طلب منكم ، وإخلادكم إلى الراحة واللذة ، حين قال لكم الرسول : انفروا فى سبيل الله لقتال الروم الذين تجهزوا لقتالكم ، والقضاء على دينكم الحق ، الذى هو سبيل سعادتكم ؟ فآية صدق الإيمان بذل النفس والمال فى سبيل الله كما قال ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾(١) وكان من أسباب تثاقلهم أمور :

ا - أن الزمن كان وقت حر شديد .

ب - أنهم كانوا قريبى عهد بالرجوع من غزوتى الطائف وحنين .

ج - أنهم كانوا فى عسرة شديدة ، وجهد جهيد من قلة الطعام .

د - أن موسم الرطب بالمدينة قد تم صلاحه وآن وقت تلطف الحر . لأن رجبا وافق أكتوبر فى تلك السنة .

روى ابن جرير عن مجاهد قال : أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح وبعد حنين ، وبعد الطائف ، أمروا بالنفير فى الصيف حين اخترقت النخل (اجتنى ثمرها) وطابت الثمار ، واشتهوا الظلال ، وشق عليهم المخرج فقالوا : منا الثقيل وذو الحاجة والضيق والشغل والمنتشر به أمره فى ذلك كله .

وكان من دأب النبى ﷺ إذا خرج إلى غزوة أن يورى بغيرها لما تقتضيه المصلحة من الكتمان إلا فى هذه الغزوة فقد صرح بها ليكون الناس على بصيرة لبعد الشقة وقلة الزاد والظهر .

وكانت حكمة الله فى إخراجهم وهو يعلم أنهم لا يلقون فيها قتالا ، تمحيص المؤمنين وخزى المنافقين ، وفضيحتهم فيما كانوا يسرون من الكفر ، وتربص الدوائر بالمؤمنين .

﴿ **أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة** ﴾ :

أى أرضيتم بلذات الدنيا الناقصة الفانية ، بدلا من سعادة الآخرة الكاملة الباقية ؟ ومن يفعل ذلك فقد استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير .

﴿ **فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل** ﴾ .

أى فما هذا الذى تتمتعون به فى الدنيا مشوباً بالمنغصات والآلام إذا قيس بما فى الآخرة من النعيم المقيم والرضوان من المولى ، إلا شىء قليل لا يرضى عاقل أن يتقبله بدلا منه .

روى أحمد ومسلم والترمذى عن المسور أن النبى ﷺ قال : (والله ما فى الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه فى أليم ثم يرفعها فلينظرْ بم يرجع)(٢) .

---

(١) الآية ١٥ من سورة الحجرات .

(٢) أخرجه مسلم فى الجنة (٥٥) . والترمذى فى الزهد (١٥) وابن ماجه فى الزهد (٣) .

أى أن نعيم الدنيا فى قلته وقلة زمنه إذا قيس إلى نعيم الآخرة الطويل الأمد كانت تلك حاله .

﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوماً غيركم ﴾ .

أى إن لم تخرجوا إلى ما دعاكم الرسول ﷺ للخروج إليه ، يعذبكم عذابا أليما فى الدنيا ، يهلككم به كقحط وغلبة عدو ، ويستبدل بكم قوماً غيركم يطيعونه ويطيعون رسله ، لأنه قد وعد بنصره وإظهار دينه على الدين كله . ﴿ **ولن يخلف الله وعده** ﴾ وقد جرت سنته بأن الأمم التى لا تدافع عن نفسها ، ولا تحمى ذمارها ، لا بقاء لها ، وتكون طعاماً للآكلين ، وغذاءًا شهياً للمستعمرين .

﴿ ولا تضروه شيئاً ﴾ .

أى ولا تضروا الله شيئاً من الضرر فى تثاقلكم عن طاعته ، ونصرة دينه ، فهو الغنى عنكم فى كل أمر ، وهو القاهر فوق عباده ، وكل من فى السموات والأرض مسخر بأمره ، ولكن قد جعل للبشر شيئاً من الإختيار ، ليكون حجة عليهم فيما سيلقون من الجزاء على أعمالهم .

﴿ والله على كل شىء قدير ﴾

أى والله قادر على كل شىء ، فهو يقدر على إهلاككم والإتيان بغيركم ، إن أصررتم على عصيان رسوله ، وتثاقلتم عن الدفاع عن حوزة دينه . ممن يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، ولا يخشون فى الحق لومة اللائمين ، كما قال : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾[1] .

ثم رغبهم ثانية فى الجهاد فأبان لهم أنه تعالى المتوكل بنصره على أعداء دينه ، أعانوه أو لم يعينوه ، وهو قد فعل ذلك به وهو فى قلة من العدد والعدو فى كثرة ، فكيف وهو من العدد فى كثرة والعدو فى قلة فقال :

﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ .

أى إن لم تنصروا الرسول الذى استنصركم فى سبيل الله على من أرادوا قتاله من أعداء الله ، وأعداء رسوله فسينصره الله بقدرته وتأييده ، كما نصره حين أجمع المشركون على الفتك به واضطروه إلى الخروج والهجرة حال كونه أحد اثنين ، وثانيهما أبو بكر فى غار جبل ثور ، حين كان يقول لصاحبه إذ رأى منه أمارة الحزن لا تخف ولا تحزن إن الله معنا بنصره ومعونته وحفظه وتأييده ، فلن يعلم بنا المشركون ولن يصلوا إلينا .

روى البخارى ومسلم من حديث أنس قال : (حدثنى أبو بكر قال : كنت مع النبى ﷺ فى الغار فرأيت آثار المشركين ، فقلت : يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه لأبصرنا تحت قدمه ، فقال عليه الصلاة والسلام : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما) .

(١) الآية ٣٨ من سورة محمد .

وخلاصة ذلك إلا تنصروه بالنفر لما استنفركم له ، فإن الله قد ضمن له النصر فهو ينصره فى الوقت الذى اضطرّه المشركون إلى الهجرة ، حين كان ثانى اثنين فى الغار ، وكان صاحبه قد ساوره الحزن فقال له : لا تحزن إن الله معنا ، ونحن لا نكلف أكثر مما فعلنا من الإستخفاء .

﴿ **فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها** ﴾ .

أى فأنزل الله طمأنينته التى يسكن عندها القلب على رسوله ، وقواه بجنود من عنده وهم الملائكة الذين أنزلهم يوم بدر والأحزاب وأحد ، وقيل بل هم ملائكة أيده بهم فى حال الهجرة ، يسترونه هو وصاحبه عن أعين الكفار ، ويصرفونها عنهما ، فقد خرج والشبان المتواطئون على قتله وقوف ولم ينظروه .

﴿ **وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا** ﴾ .

أى وجعل كلمة الشرك والكفر هى السفلى ، وكلمة الله وهى دينه المبنى على أساس توحيده تعالى والمشتمل على الأحكام والآداب الفاضلة ، والخالى من شوائب الشرك وخرافات الوثنية – هى العليا بظهور نور الاسلام وإزالة سيادة المشركين فى تلك الجزيرة بعد كفاح طويل دارت فيه الدائرة عليهم : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا ﴾[(١)] .

﴿ **والله عزيز حكيم** ﴾ : أى والله غالب على أمره ، حكيم إذ يضع الأشياء فى موضعها وقد نصر رسوله بعزته وأظهر دينه على الأديان كلها بحكمته ، وأذل من ناوأه من المشركين .

غزوة تبوك

الموقف العام

١ – المسلمون :

سيطر الإسلام بعد فتح مكة وإخضاع هوازن على شبة جزيرة العرب كلها حتى حدود الشام والعراق ، وأصبح المسلمون مسئولين عن إدارة هذه البلاد وتنظيم حياتها العسكرية والاجتماعية ، ولم يبق فى البلاد العربية كلها قوة تجرؤ على مناهضة المسلمين وإعلانهم بالعداء ، ولكن الإسلام دين العرب وحدهم ، بل هو للناس كافة ، فلابد من تأمين حرية نشر تعاليمه بين العرب وغيرهم : ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً** ﴾[(٢)] .

وإذا كان الإسلام قد انتشر فى شبه الجزيرة العربية ، فقد آن الأوان لنشره خارجها ، بعد أن أصبح المسلمون بدرجة من القوة والتنظيم تساعدهم على حماية حرية انتشاره بين الناس كافة .

٢ – المنافقون :

استمر المنافقون فى المدينة على الرغم من قلتهم وتظاهرهم بالإسلام على تثبيط الهمم ، ونشر الروح

(١) الآية ١١٥ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٢٨ من سورة سبأ .

الإنهزامية ، وخلق الفتن والمشاكل للمسلمين ، ولكنهم لم يكونوا بدرجة من الأهمية والقوة بحيث يحسب لهم المسلمون أى حساب . وقد أصبحوا على مر الزمن معروفين لأهل المدينة لا تخفى أعمالهم على أحد . وكان باستطاعة الرسول ﷺ تطهير المدينة منهم ، لولا رغبته فى أن يثوبوا إلى رشدهم ، ولو بعد حين .

٣ – المشركون :

لم يبق للمشركين فى شبه الجزيرة العربية أية قيمة عسكرية خاصة بعد إسلام قريش زعيمة القبائل العربية وعميدة المشركين ، فقد انتشر الإسلام فى القبائل العربية انتشاراً ساحقاً ، وأصبح إسلام المتخلفين من المشركين أمراً لاشك فيه ، وفعلا بدأت وفود المشركين تتسابق إلى المدينة لإعلان إسلامها ، وأخذ العرب يدخلون فى دين الله أفواجاً ، لقد أصبح خطر المشركين لا قيمة له من الناحية العسكرية .

٤ – الرومان :

كانت أحوال الإمبراطورية الرومانية مضطربة خاصة فى بلاد الشام فقد كثر تذمر الناس من ظلم حكام الرومان وإرهاقهم بالضرائب ، لذلك أقبل كثير من القبائل العربية الخاضعة لحكم الروم على اعتناق الإسلام .

أسلم فروة بن عمر الجذامى قائد إحدى الفرق الرومانية التى قاتلت المسلمين فى غزوة مؤتة ، فقبض عليه بأمر من هرقل بتهمة الخيانة ، وكان هرقل على استعداد للإفراج عنه إذا هو عاد إلى المسيحية ، ولكن فروة أصر على إسلامه فقتل .

إن انتشار الإسلام بين نصارى العرب أقضّ مضاجع الرومان ، وجعلهم يفكرون فى القضاء على الدين الجديد قبل أن يستفحل أمره ، فقاموا بتحشيد قواتهم على حدود الشام الجنوبية استعداداً لمهاجمة المسلمين ، واستخدموا الأنباط الذين كانوا يتاجرون مع المدينة لنقل المعلومات إليهم عن المسلمين ، تلك المعلومات التى أكدت لهم تزايد قوة المسلمين مادياً ومعنوياً بحيث أصبحت تلك القوةُ خطراً داهماً يهدد الإمبراطورية الرومانية .

أسباب غزوة تبوك

١ –أسباب مباشرة :

تحشدت قوات الروم لغزو حدود العرب الشمالية ، والقضاء على سلطة الإسلام هناك ، فقد بلغ رسول الله ﷺ أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام ، وأن القيصر هرقل قد رزق أصحابه لسنة وأجليت معه لخم وجذام وعاملة وغسان ، وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء .

٢ – أسباب غير مباشرة :

(أ) حماية حرية نشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية ، بعد انتشاره داخلها .

(ب) تقوية محتويات القبائل العربية الخاضعة لسلطان الروم – تلك القبائل التى أخذت تقبل على اعتناق الإسلام ، على الرغم من مكافحة الروم لهذا الاتجاه .

(جـ) محو آثار انسحاب المسلمين من مؤتة من النفوس .

أهداف الطرفين

١ – المسلمون :

حماية حرية نشر الإسلام فى بلاد الشام ، إذ هى المنفذ المهم لنشره خارج شبه الجزيرة العربية ، كما أنها المتنفس الحيوى للتجارة العربية .

٢ – الروم :

القضاء على منافسة المسلمين للإمبراطورية الرومانية فى السيطرة على العرب الخاضعين للروم ، وتحديد انتشار الدعوة الإسلامية فى بلاد الشام .

قوات الطرفين

١ – المسلمون :

ثلاثون ألفاً بقيادة الرسول ﷺ ، معهم عشرة آلاف فرس .

٢ – الروم :

قوات نظامية كبيرة من الروم يساندها العرب من لخم وجذام وعاملة وغسان .

الاستعدادات

١ – المسلمون :

أمر الرسول ﷺ بإنجاز استعدادات الحركة لقتال الروم ، ولم يكتم نواياه فى هذه الغزوة كما كان يفعل فى الغزوات السابقة ، كى يباغت بهذا الكتمان عدوه قبل أن يستطيع التهيؤ للقتال ، فقد كان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة إلا ورى بغيرها ، حتى كانت غزوة تبوك ، فغزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ، وغزو عدو كثير ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، وأخبرهم بوجهه الذى يريده ليتهيئوا لذلك .

لم يكتم نواياه فى غزوة تبوك ، لأن المسافة طويلة يجب قطعها صيفاً ، فلابد من إكمال المئونة والنقلية للمجاهدين قبل الحركة ، حتى لا يؤدى نقص القضايا الإدارية إلى فشل المسلمين فى تحقيق هدفهم المنشود .

وليس من السهل تجهيز قوات المسلمين الكبيرة بما تحتاجه من مئونة ونقلية وأسلحة ، ما لم يشارك أغنياء المسلمين فى تجهيز هذا الجيش مشاركة فعالة ، فأقبل هؤلاء الأغنياء على بذل أموالهم بسخاء ، وعن طيب خاطر ، كما أقبل المسلمون من كل فج تلبية لداعى الجهاد .

وانتهز المنافقون فرصة شدة الحر ، ونضوج الثمار ، وطول المسافة ، وقوة العدو ، فأخذوا يثبطون العزائم ، وينشرون الروح الانهزامية بين المسلمين ، ولكنهم فشلوا فى محاولاتهم إذ لم يتخلف من المسلمين أحد غير ثلاثة رجال ، ولم يقبل الرسول ﷺ أن يستعين بالقوات التى جمعها عبد الله بن أُبى ، لأنه لم يكن يثق بإخلاص تلك القوات ، فبقى ابن أبى وأصحابه من المنافقين فى المدينة .

وبقى فى المدينة بعض المسلمين الذى لم يجد الرسول ﷺ ما يحملهم عليه ، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون . وأنجز جيش العسرة استعداداته ، وتحشد خارج المدينة ، وأصبح مستعداً للحركة من كافة الوجوه .

٢ - الروم :

وزع هرقل رواتب سنة كاملة على قواته النظامية ، كما وزع كثيراً من المال على القبائل العربية الخاضعة لسيطرته ، تشجيعاً لهم لمعاونة جيشه فى الصراع الوشيك .

وبعد إنجاز استعدادات قواته ، أرسل طلائعها إلى (البلقاء) لستر التحشد الذى تم بعد ذلك فى منطقة تبوك .

الحركـــة

١ - المسلمون :

ترك جيش المسلمين المدينة فى رجب من السنة التاسعة للهجرة ، وأخذ يقطع الصحراء القاحلة فى موسم الحر الشديد ، فلما وصل منازل ثمود فى (الحجر) تلك المنطقة التى تهب فيها العواصف الرملية بين حين وآخر ، فتطمر قافلة بكاملها ، وأوصى الرسول ﷺ أصحابه ألا يخرج أحدهم إلا ومعه صاحبه ، وهناك عطش المسلمون عطشاً شديداً حتى جعلوا ينحرون إبلهم فيعصرون أكراشها ، ويشربون ماءها ، ولولا سقوط المطر عليهم يومذاك ، لهلك كثير من المسلمين عطشاً .

واستمر الجيش على السير حتى وصل تبوك ، وكانت المراحل تقطع ليلا للتخلص من الحر الشديد ، وعند تبوك ، لم يجدوا قوات الروم هناك ، فقرر الرسول ﷺ البقاء فى تبوك بقواته الرئيسية ، بعد أن علم بانسحاب الروم إلى الشمال .

٢ - الروم :

ثم تحشدت قوات الروم المؤلفة من جنودها النظاميين ، ومن القبائل العربية الموالية لها فى تبوك ،

قبل وصول المسلمين إليها ، ولكن المعلومات التى وصلتهم عن ضخامة جيش المسلمين ، وقوة معنوياتهم ، اضطرت الروم إلى الانسحاب من تبوك شمالا .

السيطرة على المنطقة

١ - مصالحة صاحب أيلة :

وجه الرسول ﷺ إلى يوحنا بن رؤية صاحب أيلة رسالة يطلب فيها منه أن يذعن للمسلمين أو يغزوه ، فأقبل يوحنا بنفسه إلى الرسول ﷺ ، وقدم له الهدايا والطاعة .

وكان نص وثيقة الصلح بين المسلمين ويوحنا ما يلى : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة ، سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله ومحمد النبى ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمحمد أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يمنعوا ما يريدونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر » .

واتفق الطرفات على أن تدفع أيلة جزية قدرها ثلاثمائة دينار فى كل عام .

٢ - مصالحة أهل الجرباء وأذرح :

تم الصلح بين المسلمين وأهل الجرباء - وهى قرية فى منطقة عمان بالبلقاء من أرض الشام ، وبين المسلمين وأهل أذرح ، هى بلدة قريبة من الجرباء - على الجزية أيضاً .

٣ - مصالحة أهل دومة الجندل :

بعث النبى ﷺ خالد بن الوليد فى أربعمائة وعشرين فارساً إلى دومة الجندل ، فباغت خالد الأكيدر الكندى مليكها ، وأخاه حسان وهما يطاردان بقر الوحش ، فقتل وأسر الأكيدر ، فهدده خالد بالقتل إن لم تفتح دومة الجندل أبوابها للمسلمين .

فتحت المدينة أبوابها فداءًا لمليكها ، فدخلها المسلمون وغنموا منها ألفى بعير ، وثمانمائة شاة ، وأربعمائة وسق من بر وأربعائه درع ، وذهب بها خالد ومعه الأكيدر حتى لحق بالنبى ﷺ فى المدينة فحقن الرسول ﷺ دم الأكيدر ، وصالحه على الجزية ، وتركه يعود إلى قومه فى دومة الجندل .

عودة المسلمين

أقام المسلمون حوالى عشرين يوماً فى منطقة تبوك ، انتظاراً لعودة جيوش الروم ، وتأمينا للحدود الشمالية بعقد المعاهدات مع سكانها ، ودعما لهيبة الإسلام فى نفوس القبائل ، والعمل لحماية حرية نشر الدعوة فى تلك الأرجاء ، فلما أنجزوا كل ذلك تحركوا عائدين إلى المدينة .

وصل المسلمون إلى المدينة ، فجاء المتخلفون عن الخروج يعتذرون ، وكان هؤلاء المتخلفون

قسمين : القسم الأول من المنافقين المتظاهرين بالإسلام ، وهؤلاء أعرض عنهم الرسول ﷺ تاركا لله حسابهم ، والقسم الثانى من المسلمين الذين لا شائبة فى إسلامهم ، وهم ثلاثة ، كعب بن مالك ، ومرارة ابن الربيع ، وهلال بن أمية وهؤلاء اعترفوا بذنبهم ، فأمر الرسول ﷺ أن يعرضوا عنهم حتى يأتى أمر الله .

النفير العام

ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

المفردات : ﴿ **العرض** ﴾ : ما يعرض للمرء من منفعة ومتاع مما لاثبات له ولا بقاء وليس فى الوصول إليه كبير عناء ويقال سير قاصد . ﴿ **وسفر قاصد** ﴾ : أى هين لا مشقة فيه من القصد وهو الاعتدال . و ﴿ **الشقة** ﴾ : الطريق لا تقطع إلا بعناء ومشقة . و ﴿ **العفو** ﴾ : التجاوز عن التقصير وترك المؤاخذة عليه .

قوله تعالى ﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً** ﴾ .

أى فى المنشط والمكره ، والعسر واليسر ، شيباً وشباناً .

وفى رواية قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية فقال أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباناً ، جهزونى يا بنى فقال بنوه يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، ومع أبى بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك ، فأبى فركب البحر فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير . فدفنوه فيها .

قوله تعالى ﴿ **وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ .

هذا ترغيب منه سبحانه وتعالى فى الجهاد بالمال والنفس وذلك لأن المال به تقوى العزائم فى القتال ، وذلك بإعداد المجاهد وتسليحه إلى غير ذلك ، فالمال عصب الحياة ، وغذاء القتال ، وكذلك المجاهدة بالنفس والتضحية بكل غال وثمين .

قال ﷺ : (تكفل الله للمجاهد فى سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة أو يرده إلى منزله بما نال من أجر أو غنيمة) [١] .

ولهذا قال تعالى ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[٢] .

قوله تعالى ﴿ **لو كان عرضاً قريباً وسفرا قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون** ﴾ .

هذا توبيخ وتقريع لهؤلاء المتخلفين عن الغزو مع رسول الله ﷺ ، الذين اصطنعوا الأعذار ، واختلقوا الأسباب .

قال ابن عباس المراد بالعرض القريب : الغنيمة القريبة وسفراً قاصداً أى قريباً لاتبعوك أى لكانوا جاءوا معك ﴿ **ولكن بعدت عليهم الشقة** ﴾ أى المسافة إلى الشام ﴿ **وسيحلفون بالله** ﴾ أى لكم إذا رجعتم إليهم ﴿ **لو استطعنا لخرجنا معكم** ﴾ أى لو لم يكن لنا أعذار لخرجنا معكم قال تعالى ﴿ **يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون** ﴾ .

وتلك أخلاق المنافقين فى كل عصر ومصر ، إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا عاهدوا غدروا ، وإذا خاصموا فجروا ، وإذا ائتمنوا خانوا ، عالة على المجتمع فى السراء ، وسوس ينخر فى عظامه أيام الضراء .

والنفاق مرض اجتماعى خطير فتاك ، والمنافقون هم المعوقون للعزائم ، المثبطون للهمم ، إذا رأوك حسدوك وإذا تواريت عنهم اغتابوك ، السنة عندهم بدعة ، والبدعة عندهم سنة ، لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، ولا من المصحف إلا رسمه ، همهم بطونهم ، وقبلتهم نساؤهم ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون . ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾[٣] .

قوله تعالى ﴿ **عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين** ﴾ .

قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو حصين بن سليمان الرازى حدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر عن عون قال : هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا ؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة فقال : « عفا الله عنك لم أذنت لهم » .

وقال قتادة : عتابه كما تسمعون .

ثم أنزل التى فى سورة النور فرخص له فى أن يأذن لهم إن شاء فقال ﴿ **فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم** ﴾ .

قال مجاهد نزلت هذه الآية فى أناس قالوا : استأذنوا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم

(١) أخرجه البخارى فى التوحيد (٢٨، ٣٠) وفى الجهاد (٢) وفى الخمس (٨) . ومسلم فى الامارة (١٠٤) . والنسائى فى الجهاد (١٤) . وابن ماجه فى الجهاد (١) . والإمام مالك فى الجهاد (٢) .

(٢) الآية ٢١٦ من سورة البقرة .

(٣) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة المجادلة .

يأذن لكم فاقعدوا . ولهذا قال تعالى ﴿ **حتى يتبين لك الذين صدقوا** ﴾ أى فى إبداء الأعذار ﴿ **وتعلم الكاذبين** ﴾ .

يقول تعالى هلا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم فى القعود ، لتعلم الصادق منهم فى إظهار طاعتك من الكاذب ، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو إن لم تأذن لهم فيه .

ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه فى القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله فقال ﴿ **لا يستأذنك** ﴾ أى فى القعود عن الغزو . ﴿ **الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم** ﴾ بأنهم يرون الجهاد كربة ، ولما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا والله عليم بالمتقين .

قوله تعالى ﴿ **إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون** ﴾ أى لا يستأذنك فى الجهاد ، وإبداء الأعذار والقعود عنه إلا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر . وذلك لما فى قلوبهم من الريبة والتردد وحب الدنيا وكراهية الموت . فإن القلوب المؤمنة تجد ريح الجنة فى الجهاد بل وتجد الجنة فى ظلال السيوف ، إنها قلوب رضيت بالله رباً وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .

أما القلوب التى أصيبت بمرض النفاق فإنها مظلمة ، لا ترى نور الله . فهى ﴿ كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ﴾[٢] .

هذه الظلمات المتراكمة تجعل صاحبها يعيش فى قلق وريبة وتردد ﴿ **إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور** ﴾ .

مواقف المنافقين من الجهاد والمجاهدين

﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ

(١) الآية ٤٠ من سورة النور .

بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾

المفردات : ﴿ **الخبال** ﴾ : الاضطراب فى الرأى والفساد فى العمل كضعف القتال والخلل فى النظام . ويقال وضع الرجل إذا عدا مسرعا وأوضع راحلته إذا حملها على الإسراع . و ﴿ **خلال** ﴾ الأشياء : ما يفصل بينها من فروج ونحوها . و ﴿ **الفتنة** ﴾ : التشكيك فى الدين والتخويف من الأعداء . و ﴿ **سماعون لهم** ﴾ : أى ضعفاء العزيمة يسمعون قولهم . و ﴿ **تقليب الشيء** ﴾ : تصريفه فى كل وجه من وجوهه والنظر فى كل ناحية من أنحائه والمراد أنهم دبروا الحيل والمكايد ودوروا الآراء فى كل وجه لإبطال دينك . ﴿ **الفرق** ﴾ : (بالتحريك) الخوف الشديد الذى يفرق بين القلب وإدراكه . و ﴿ **الملجأ** ﴾ : المكان الذى يلجأ إليه الخائف ليعتصم به كحصن أو قلعة أو جزيرة فى بحر أوقنة فى جبل . و ﴿ **المغارات** ﴾ : واحدها مغارة وهى الكهف فى الجبل يغور فيه الإنسان ويستتر . و ﴿ **المداخل** ﴾ :(بالتشديد) السرب فى الأرض يدخله الإنسان بمشقة . و ﴿ **الجماح** ﴾ : السرعة التى تتعذر مقاومتها . ﴿ **اللمز** ﴾ : العيب والطعن فى الوجه . ﴿ **والهمز** ﴾ : الطعن فى الغيبة ورغبة ورغب فيه : أحبه ، ورغب عنه : كرهه.ورغب إليه : طلبه وتوجه إليه .

قوله تعالى : ﴿ **ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة** ﴾ أى لو أراد هؤلاء المنافقون أن يخرجوا معك إلى الغزو والجهاد والقتال لأعدوا لذلك الخروج عدته ، وتهيأوا له . ﴿ **ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين** ﴾ وذلك لسابق علم الله فيهم ، فقد كره خروجهم معكم لما فيه من الفساد والإفساد فثبطهم وأخر خروجهم . فليس الخروج غاية لهم ، بل إن مكانهم فى القعود مع القاعدين المتخلفين فهذا هو مقتضى الحكمة . أن توضع الأشياء فى مكانها الصحيح .

ثم بين تعالى ما سوف يترتب على خروجهم من الفساد والإفساد وتمزيق الصف وتثبيط الهمم ،

فقال : ﴿ **لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين** ﴾ .

جل جلال الله فهو العليم بذات الصدور ، الخبير بدقائق الأشياء ، المحيط بحقائقها ، فقد بين سبحانه فى هذه الآية خبيئة تلك النفوس المريضة وما يعتمل فيها من شر وسوء . فلو خرجوا فى صفوف المجاهدين ما زادوهم عددا فى الخير ، بل لكانت زيادتهم له خبالا ، أى اضطرابا فى الرأى ، وفسادا فى العمل ، لأسرعوا فى صفوف المسلمين يقصدون الفتنة والفتنة نائمة لعن الله من أيقظها .

وفى صفوف المسلمين سماعون لهؤلاء المنافقين يستنصحونهم الرأى ، لأنهم لا يعلمون حقيقتهم ، وخفايا نفوسهم ، ويحسنون النية لهم لجهلهم بأحوالهم ، ويجوز أن يكون المعنى أن فى صفوف المجاهدين قوم اندسوا بقصد أن ينقلوا أخبار الجماعة المسلمة إلى هؤلاء المنافقين ، وأنهم جواسيس لحساب هؤلاء المثبطين المفسدين .

وفى هذا تحذير للجماعة المسلمة من شرور هؤلاء ، وأخذ الحيطة من جهتهم فإنهم كالجراثيم التى تفتك بالمجتمع فتكا ذريعا فتذره أثرا بعد عين ، وتدعه حطاما لا يغنى شيئا ، والله عليم بالظالمين ، خبير بمكنون صدورهم ﴿ هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ **لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون** ﴾ :

هذا إخبار منه تعالى عن حال هؤلاء الذين مرضت قلوبهم بالبغضاء والشحناء . لقد طلبوا الفتنة من قبل حين قدوم الرسول وأصحابه إلى المدينة ، فاتحدوا مع اليهود ، ووقفوا معهم فى خندق واحد ، وقفوا مع بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة ، وقلبوا لك الأمور وفكروا ودبروا ، وتآمروا حتى جاء الحق ، فنصرك الله على هؤلاء البغاة الطغاة ، وظهر أمر الله جليا وهم كارهون لنصر الله لك ، يتظاهرون بالإسلام ، ويتربصون بكم الدوائر .

فإن كان لكم فتح من الله قالوا : ألم نكن معكم ؟ وإن كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ؟ إن النفوس الحاقدة لا تعرف معروفا ، ولا تنكر منكرا ، إلا ما أشربت من هواها فإن الحقد يعمى ويصم . فالمنافقون كما وصفهم الله تعالى فى قوله ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾[2] .وقوله تعالى ﴿ **ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين** ﴾ :

روى محمد بن إسحاق بسنده عن رسول الله ﷺ : قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو فى جهازه للجد بن قيس أخى بنى سلمة « هل لك يا جد العام فى جلاد بنى الأصفر ؟ » فقال: يا رسول الله أو تأذن لى ولا تفتنى ، فوالله لقد عرف قومى مارجل أشد عجبا بالنساء منى وإنى أخشى إن رأيت نساء

(١) الآية ٤ من سورة المنافقون .
(٢) الآية ١٤ من سورة البقرة .

بنى الأصفر أن لا أصبر عنهن . فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال : « قد أذنت لك » . ففى الجد بن قيس نزلت هذه ﴿ **ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى** ﴾ .

الآية : أى إن كان إنما يخشى من نساء بنى الأصفر وليس ذلك به فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم .

وفى هذه الآية الكريمة يظهر الله تعالى ما فى نفوس هؤلاء الذين يستأذنون ليؤذن لهم بالقعود ، ويبدون من الأعذار ما يدل على خبثهم وخداعهم ، إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، إنهم الخبثاء يلتمسون لأنفسهم الأعذار التى لا تثبت أمام الحق . إنهم يدعون الطهر والعفة ، ويخشون الافتتان بنساء الروم ، وهم قد سقطوا فى الفتنة من أخمص أقدامهم إلى منابت شعورهم ، وتمرغوا فى أوحال الأرض ، وشربوا من كأس المعصية حتى سكروا بخمر الرذيلة ، وإن جهنم لمحيطة بهؤلاء الكافرين ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ **إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون** ﴾ .

فى هذه الآية إظهار لما انطوت عليه نفوس هؤلاء من شماتة وعداء ، فهم بين أمرين : إن رأوا المسلمين فى خير امتلأت نفوسهم ضيقا وضجرا حسدا من عند أنفسهم ، وإن رأوهم فى شدة فإنهم فى شماتة بالغة يقولون : قد أخذنا حذرنا ، وأعددنا العدة من قبل . وهذا لأنهم لا يؤمنون بقضاء الله وقدره ، ثم يعرضون عن المؤمنين وقلوبهم مليئة بالفرح الشامت بما حل بالجماعة المؤمنة من شدائد .

لذلك لقن الله عباده المؤمنين الجواب الشافى فى الرد على هؤلاء المعاندين المكابرين فقال : ﴿ **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ .

هذا هو التسليم المطلق والتفويض الكامل لصاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة . الوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته لا تطرف فى هذا الوجود طرفة عين ، ولا تهب نسمة هواء ، ولا يحدث فى هذا الكون حدث كبير وصغير إلا بإذن من لا يغفل ولا ينام يقول تعالى فى الحديث القدسى الجليل : [عبدى أنت تريد وأنا أريد ولا يكون إلا ما أريد ، فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك ما تريد وإن لم تسلم لى فيما أريد أتعبتك فيما تريد ولا يكون إلا ما أريد] .

كن عن همومك معرضا ... وكل الأمور إلى القضا
وانعم بطول سلامة ... تسليك عما قد يمضى
فلربما اتسع المضيق ... وربما ضاق الفضا
ولرب أمر مسخط ... لك فى عواقبه رضا
الله يفعل ما يشاء ... فلا تكن معترضا

(١) الآية ١٤٥ من سورة النساء .

إن عقيدة المسلم تجعله يوقن بأن كل شيء بقضاء ، ولن يصيبه إلا ما كتب الله له ، لأنه سيده ومولاه ، المالك المتصرف ، إنه يعلم علم اليقين أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، فقد جرى القلم بما هو كائن . وقد جفت الأقلام وطويت الصحف ، إنهم على ربهم يتوكلون ، فهم مؤمنون معتمدون على خالقهم ، يأخذون فى الأسباب ويفوضون عواقب الأمور لمن يقول وقوله الحق ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون ﴾[١] .

ثم يزيد الله المؤمنين يقينا بحسن العاقبة ، وأنهم فى خير سواء انتصروا أم قتلوا .

أما حال الأعداء المارقين فشر إما تعذيب من الله ، أو قتل على أيدى المسلمين فيقول سبحانه :

﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾ :

أى قل لهؤلاء هل تنتظرون بنا إلا إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة : وكلا الأمرين خير ، وقد كتب الله تعالى النصر لمن نصره فقال : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾[٢] .

ثم بين حال الذين ينصرون الله فقال : ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾[٣] .

ولقد كرم الله الشهداء الذين نزلوا حومة القتال يجاهدون فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا ، قال سبحانه : ﴿ والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾[٤] .

ومن هنا فإن أمر المؤمن كله خير إما النصر وإما الشهادة .

أما المنافقون ومرضى القلوب فنحن ننتظر بهم أن يصيبهم الله بعذاب من عنده ، كما حدث للأمم السابقة كعاد وثمود ، أو ينزل الله العذاب بهم بقتل المؤمنين لهم وأسرهم . **﴿ فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾** . قال تعالى : ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون . ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[٥] .

وبعد أن لقن الله تعالى عباده المؤمنين الإجابة الصحيحة **﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾** **﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ﴾** قال الله تعالى لعباده أن يخبروا هؤلاء المنافقين بأن الله تعالى لن يقبل منهم أى نفقة فقال سبحانه : **﴿ قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين ﴾** :

---

(١) الآية ١٢٣ من سورة هود .
(٢) الآية ٤٠ من سورة الحج .
(٣) الآية ٤١ من سورة الحج .
(٤) الآيات ٤ - ٦ من سورة محمد .
(٥) الآيات ١٢١ - ١٢٣ من سورة هود .

إن الله تعالى لا يقبل العمل من العبد إلا بشرطين : أن يكون صوابا أى على الوجه الذى أمر الله به ، وأن يكون خالصا لا رياءً فيه ولا سمعة .. وهؤلاء المنافقون خلت أعمالهم من الصواب والإخلاص ، سواء أدوا أعمالهم طائعين رياءً أمام المؤمنين ، أو مكرهين خوفا من العقاب . فلن يتقبل الله منهم شيئا ، لأنهم فاسقون خارجون على حدود الله ، فأعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف .

وقد بين الله تعالى العلة فى عدم قبول أعمالهم ولاسيما النفقة فقال : ﴿ **وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون** ﴾ .

وليس بعد الكفر ذنب فالكفر يحبط الأعمال . قال تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ﴾[١] وقال جل شأنه : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورا ﴾[٢] .

وكيف يقبل الله عملا من كافر به وبرسوله ، وإن تظاهر بخلاف ذلك ولو صلى وصام وزعم أنه مسلم ، فإنهم يأتون الصلاة كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ، وإذا أنفقوا أنفقوا كارهين خوفا من العقوبة لا ابتغاء مرضاة الله . وقد أخبر الصادق المعصوم ﷺ :(أن الله لا يمل حتى تملوا وأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا)[٣] . فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملا لأنه إنما يتقبل من المتقين .

وقد بين الله تعالى أن أموال هؤلاء وأولادهم إنما هى وبال عليهم فى الدنيا والآخرة فقال : ﴿ **فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾ .

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿ **فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم** ﴾ كما قال تعالى ﴿ ولا تمدّن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾[٤] وقال ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾[٥] .

وقوله ﴿ **إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا** ﴾ .

قال الحسن البصرى : بزكاتها والنفقة منها فى سبيل الله .

وقوله ﴿ **وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾ أى ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر ليكون ذلك أنكى لهم ، وأشد لعذابهم عياذا بالله من ذلك ، وهذا يكون من باب الإستدراج لهم فيما هم فيه .

قوله تعالى ﴿ **ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون * لو يجدون ملجئاً أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون** ﴾ .

يخبر الله تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفزعهم وفرقهم وهلعهم ، أنهم ﴿ **يحلفون بالله إنهم لمنكم** ﴾

---

(١) الآية ١ من سورة محمد . (٢) الآية ٢٣ من سورة الفرقان .

(٣) أخرجه مسلم فى الزكاة (٦٥) . والترمذى فى تفسير (سورة ٢ : ٣٦) وفى الأدب (٤١) والدرامى فى الرقاق (٩) . والإمام أحمد فى (٢ : ٢٣٨) .

(٤) الآية ١٣١ من سورة طه . (٥) الآيتان ٥٥ ، ٥٦ من سورة المؤمنون .

يمينا مؤكدة ، ﴿ وما هم منكم ﴾ أى فى نفس الأمر ﴿ ولكنهم قوم يفرقون ﴾ أى فهو الذى حملهم على الحلف .

﴿ لو يجدون ملجأ ﴾ أى حصناً يتحصنون به ، وحرزاً يتحرزون به ﴿ أو مغارات ﴾ وهى التى فى الجبال ﴿ أو مدخلاً ﴾ وهو السرب فى الأرض والنفق ، قال ذلك فى الثلاثة ابن عباس ومجاهد وقتادة .

﴿ لولوا إليه وهم يجمحون ﴾ أى يسرعون فى ذهابهم عنكم ، لأنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة ، وودوا أنهم لا يخالطونكم ، ولكن للضرورة أحكام ، ولهذا لا يزالون فى هم وحزن وغم ، لأن الإسلام وأهله لا يزال فى عز ونصر ورفعة ، فلهذا كلما سر المسلمون ساءهم ذلك ، فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين ، ولهذا قال ﴿ لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون ﴾ .

قوله تعالى ﴿ **ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون * ولو أنهم رضوا ماآتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون** ﴾ .

يقول تعالى ﴿ ومنهم ﴾ أى ومن المنافقين ﴿ من يلمزك ﴾ أى يعيب عليك ﴿ فى ﴾ قسم ﴿ الصدقات ﴾ إذا فرقتها ويتهمك فى ذلك ، وهم المتهمون المأبونون ، وهم مع هذا لا ينكرون للدين ، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم ، ولهذا ﴿ إن أعطوا ﴾ من الزكاة رضوا ﴿ وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ﴾ أى يغضبون لأنفسهم .

قال ابن جريج أخبرنى داود ابن أبى عاصم قال : «أتى النبى ﷺ بصدقة فقسمها ها هنا وها هنا حتى ذهبت . قال : ووراءه رجل من الأنصار فقال : ما هذا بالعدل فنزلت هذه الآية »[1] .

وقال قتادة فى قوله ﴿ ومنهم من يلمزك فى الصدقات ﴾يقول : ومنهم من يطعن عليك فى الصدقات ، وذكر لنا (أن رجلا من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبى ﷺ وهو يقسم ذهبا وفضة فقال : يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ما عدلت . فقال نبى الله ﷺ : (ويلك فمن ذا الذى يعدل عليك بعدى) ثم قال نبى الله (احذروا هذا وأشباهه فإن فى أمتى أشباه هذا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم فإذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم)[2] .

وذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول : (والذى نفسى بيده ما أعطيكم شيئا ولا أمنعكموه ، إنما أنا خازن)[3] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (٢ ، ٢١٩) .

(٢) أخرجه البخارى فى المناقب (٢٥) وفى التوحيد (٢ ، ٣ ، ٥ ، ٧) . ومسلم فى المسافرين (٢٧٥) وفى الزكاة (١٤٢ - ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٨) آ وأبو داود فى السنة (٢٨) . والترمذى فى الفتن (٢٤) والنسائى فى الزكاة (٧٩) . وابن ماجه فى المقدمة (١٢) .

(٣) أخرجه مسلم فى الزكاة (٩٨) . والبخارى فى الخمس (٧) . وأبو داود فى الأمارة (١٣) . والأمام أحمد فى (٢ : ٣١٤) وفى (٣ : ٤٧٥) وفى (٤ : ٩٩ ،) .

وهذا الذى ذكره قتادة يشبه ما رواه الشيخان من حديث الزهرى عن أبى سلمه عن أبى سعيد فى قصة ذى الحويصرة واسمه حرقوص لما اعترض على النبى ﷺ حين قسم غنائم حنين فقال له اعدل فإنك لم تعدل فقال « لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل » . ثم قال رسول الله ﷺ وقد رآه مقفياً (إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء ﴾[١] .

ثم قال تعالى منبها لهم على ما هو خير لهم من ذلك فقال : ﴿ **ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون** ﴾ .

فتضمنت هذه الآية الكريمة أدبا عظيماً ، وسراً شريفاً ، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده ، وهو قوله ﴿ **وقالوا حسبنا الله** ﴾ وكذلك الرغبة إلى الله وحده فى التوفيق لطاعة الرسول ﷺ ، وامتثال أوامره ، وترك زواجره ، وتصديق أخباره ، والإقتفاء بآثاره .

مصارف الزكاة

*** إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾**

من طبيعة الإنسان حب المال ، وقد يكون الغنى أشد حباً والطمع فيه شديد ، وضعيف الإيمان دائما لا يرضى بما يعطى ، وقد كان المنافقون وضعفاء الإيمان لا يرضون بقسمة الرسول ﷺ : ﴿ **ومنهم من يلمزك فى الصدقات** ﴾ .

على أن للمال سطوة وشهوة ، قد تجمح ببعض الأغنياء وأولياء الأمور فيميلون عن طريق الحق فى صرف الزكاة ، لذلك بين القرآن مصرف الصدقة الواجبة . والآية مناسبة لما قبلها ، قاضية على أطماعهم ، مبينة حقيقة ماصنع الرسول معهم ، وأنهم مخطئون فى اعتراضهم .

﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين** ﴾ ولغيرهم من الأصناف الثمانية ، لا تتعداهم إلى غيرهم أبداً ، والمراد إنما هى لهم لا لغيرهم ، قد فرضها الله منه ، والله عليم بخلقه ، حكيم فى فعله .

وهذه الأصناف هى :

١ ــ **الفقير** : المقابل للغنى ، والقرآن دائماً يذكرهما متقابلين ﴿ ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ﴾[٢] وهو المحتاج .

---

(١) أخرجه البخارى فى التوحيد (٢٣) وفى المغازى (٦١) وفى الأنبياء (٦) وفى تفسير (سورة : ١٠) . ومسلم فى الزكاة (١٤٣، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦) . وأبو داود فى السنة (٢٨) . والنسائى فى الزكاة (٧٩) وفى التحريم (٢٦) ، والإمام أحمد فى (٣ : ٤ ، ٧٣) .

(٢) الآية ٦ من سورة النساء .

٢ – **المسكين** : عديم الحركة من حاجته وضعفه ، فالفقر والمسكنة يلتقيان فى الحاجة .
٣ – **والعاملين عليها** : كالكتبة والحراس والصيارفة والمشرفين على الجمع .
٤ – **والمؤلفة قلوبهم** : وهو صنف من الناس كان يعطيهم الرسول ، وأبو بكر ، من باب تأليف القلوب وجمعها على الإسلام ، لضعف فى إيمانهم ، أو لحكمة فى عطائهم ، وهذا حق للإمام بفعل ما فيه المصلحة .
٥ – **وفى الرقاب** : والمراد الصرف للإعانة فى فك الرقاب وعتقها من ذل الرق ، وبؤس الأسر ، ويدخل فى ذلك المال المدفوع لفك الأمة وعتقها من ذل الاستعمار ، وكيد الدخيل الأجنبى .
٦ – **والغارمين** : وهم من عليهم غرامة مالية أثقلت كواهلهم ، كديون عليهم استدانوها فأغرقت مالهم ، أو هم قوم عزموا فى سبيل صلح بين الناس ، أو جمع شمل المسلمين .
٧ – **وفى سبيل الله** : والمراد به هنا مصالح المسلمين العامة التى بها قوام أمر دينهم ودولتهم ، من كل خير يعود على المجموع ، وهذا يشمل تسهيل العمل لكل عاطل ، وعلاج كل مريض ، وتعليم كل جاهل ، وبالأخص التعليم الدينى .
٨ – **وابن السبيل** : وهو المنقطع عن بلده فى سفر لم يتيسر له شيء من المال ، فيعطى حتى يصل إلى ماله .

والظاهر – والله أعلم – أن السر فى التعبير باللام المفيدة للملك فى أصناف خاصة ، هم الفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمين وابن السبيل ، وبقى فى صنفين هما فى الرقاب وفى سبيل الله : أن (اللام) أصحابها أشخاص يملكون و(فى) أصحابها ليسوا أشخاصاً ، بل المراد أوصافاً ومصالح عامة للمسلمين ، والترتيب فى الآية ملحوظ ومقصود .

أذى المنافقين للنبى ﷺ والرد عليهم

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

المفردات : ﴿ **يؤذون** ﴾ : الأذى ما يؤلم الإنسان فى نفسه أو ماله أو بدنه قليلا كان أو كثيراً . ﴿ **أذن** ﴾ : هذا من باب تسمية الإنسان باسم جزء منه للمبالغة فى وصفه بوظيفته كما قالوا للجاسوس عين .

لون آخر من ألوان نفاقهم ، ذكر مناسباً لذكر لمزهم عليه ، ونقدهم له فى تقسيم الغنائم والصدقات .

وبعض هؤلاء المنافقين الذين يؤذون النبى ، ويصفونه بصفات تتنافى مع نبوته ورسالته ، وشهادة الحق له بأنه على خلق عظيم ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[١] .

وهكذا عمل المنافقين دائما خارج عن حدود العقل والواقع ، يقولون فى شأن النبى ﷺ هو أذن يسمع كل ما يقال له ويصدقه ، ويرمون إلى أنه لا يميز بين هذا وذاك ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ﴾[٢] وإنما هو النبى الكريم ، صاحب الخلق الكامل ، والإحساس العالى ، لا يجابه أحداً بما يؤلمه ، ولا ينقد أحداً بما يؤذيه ، بل يقول دائما : ما بال قوم ؟ ما بال رجال ؟ .

وقد كان ﷺ يعامل المنافقين بظاهر حالهم ، ويجرى عليهم أحكام الشريعة الإسلامية وآدابها التى يعامل بها الناس .

ولقد رد الله عليهم ولقنه الجواب : قل ﴿ **هو أذن خير** ﴾ لا أذن شر كما تعملون . فهو لا يقبل مما يسمعه إلا الخير ، وما وافق الشرع ، ولا يسمع الباطل ولا الغيبة ولا النميمة ولا الجدال ولا المراء .

ثم فسر المراد بأذن خير : بأنه يؤمن بالله ، وما يوحيه إليه من أخبار الغيب ، وأسرار السماء ، وبما يوحى إليه من أخباركم وأخبار غيركم ، ويؤمن للمؤمنين ، إيمان جنوح وميل وائتمان للمهاجرين والأنصار ، وصادق الإيمان ، أما المنافقون فلا يميل لهم ، ولا يصدق خبرهم ، وفى هذا تهديد لهم بأن الله ينبئه بأسرارهم وأخبارهم ﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم ﴾[٣] .

وهو رحمة للمؤمنين فقد هداهم إلى سعادة الدنيا والآخرة ، وفى قوله ﴿ **منكم** ﴾ إشارة إلى أن منهم من يدعى الإيمان ، وهو كاذب فيه ، وإشارة إلى أنه عالم بأن منهم المنافقين ، ولكن لحسن خلقه يعاملهم بالحسنى حتى يؤذن بغيرها .

والذين يؤذون رسول الله فى كل ما يتعلق بالرسالة كوصفه بالسحر والكذب وعدم الفطنة الخ ، لهم عذاب أليم ، إذ هم كفروا بهذا . أما الإيذاء الخفيف فيما يتعلق بشخصه فحرام فقط ، مع أنه لا يصدر من مؤمن أبداً ، وإيذاء أهل بيته حرام كذلك .

من آثار النفاق

يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ

(١) الآية ٤ من سورة القلم . (٢) الآية ٥ من سورة الكهف . (٣) الآية ٦٤ من سورة التوبة .

وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

المفردات : ﴿ **يحادد الله** ﴾ : المحاداة كالمعاداة مأخوذة من الحد أى طرف الشيء وهكذا كل عدو يكون فى ناحية وشق بالنسبة لخصمه وعدوه . ﴿ **يحذر** ﴾ : الحذر الخوف فى المستقبل من شيء خاص . ﴿ **فخرج** ﴾ : الإخراج يشمل إظهار مكنون الصدور وإخراج الحب من الأرض والنفى من الوطن . ﴿ **نخوض** ﴾ : خاض بالعمل الباطل لا الحق لأنه مأخوذ من الخوض فى البحر أو الوحل والمراد الإكثار من العمل الذى لا ينفع .

إن من عادة المنافقين والكاذبين ، ومن يرتكبون جرماً، أن يشعروا بحرج موقفهم ، وكأن الناس جميعاً مطلعون عليهم عالمون بأحوالهم ، ولذلك تراهم يكثرون من الحلف حتى تبتعد عنهم الشبهة المحيطة بهم .

وقد كان المنافقون كثيراً ما يحلفون ويعتذرون ، والله يعلم إنهم لكاذبون .

يحلفون لكم أيها المؤمنون أنهم برءاء مما نسب إليهم قولا وفعلا ، ليرضوكم فتطمئنوا لهم ، وتثقوا فيهم ، وهم قد فهموا أنهم بهذا يضمونكم لصفوفهم .

فيرد الله عليهم ويكشف سترهم حيث يقول : يحلفون لكم ليرضوكم ، والحال أن الله ورسوله أحق بالإرضاء ، من المؤمنين ، وإرضاء الله ورسوله بالإيمان الصادق والعمل الكامل ، والبعد عن النفاق ، وقد أفرد (الضمير) (أن يرضوه) ليعلموا أن رضاء الرسول رضاء الله .

﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾ هذا إن كانوا مؤمنين حقاً ، إذ علامة الإيمان ثقة بالله وحب له ولرسوله ، والعمل على رضاهما بامتثال الأمر ، واجتناب النهى ، « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار »(١) .

﴿ **ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله** ﴾ حتى يكون فى جانب والله ورسوله فى جانب آخر ، فإن له نار جهنم يصلاها وبئس القرار قراره ، له نار جهنم خالداً فيها ، وذلك هو الخزى العظيم ، والنكال والذل المهين .

المنافقون مذبذبون بين الإيمان والكفر ، شاكون مرتابون فى الوحى ، وصدق الرسول ﷺ ، وهذا الشك والارتياب يدعوهم إلى الحذر والإشفاق ، بل هو لازم له ، إذ لو كانوا موقنين بكذب الرسول لما جاءهم الحذر ، ولو كانوا مؤمنين حقا لما كان لهذا الخوف والحذر محل ، لهذا يصفهم القرآن بقوله : ﴿ **يحذر المنافقون أن تنزل** ﴾ على المؤمنين ﴿ **سورة** ﴾ كاشفة لهم ، فاضحة أستارهم ، مبينة

(١) أخرجه مسلم فى الايمان (٦٦ ، ٦٧) . والبخارى فى الأيمان (٩ ، ١٤) وفى الأكراه (١) .

نفاقهم كهذه السورة ، ولذلك سميت الكاشفة والفاضحة .

يحذرون من سورة تنبئهم بما فى قلوبهم ، والمراد اللازم وهو فضيحتهم ، وكشف عورتهم ، وبيان شكهم وارتيابهم ، وتربصهم الدوائر بالمسلمين ، وإنذارهم بما قد يترتب على ذلك من عقابهم ، وقد كان المنافقون دائمى الاستهزاء بالنبى والمؤمنين ، كما مر ﴿ إنما نحن مستهزئون ﴾ .

ولذلك يأمر الله نبيه بأن يقول لهم ، قل استهزئوا كما تشاءون ، وهذا تهديد لهم شديد ، ووعيد عليه ﴿ **إن الله مخرج ما تحذرون** ﴾ إخراجه من مخبئات الضمير ، ومكنونات الصدور ، وقد حصل ذلك وظهر نفاقهم لكل الناس .

روى عن قتادة قال : « بينما رسول الله ﷺ فى غزوته إلى تبوك ، وبين يديه أناس من المنافقين ، فقالوا : أيرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها ، هيهات . فأطلع الله نبيه على ذلك فقال : احبوا على هؤلاء للركب ، فأتاهم فقال : قلتم كذا وقلتم كذا . قالوا : يا نبى الله إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله فيهم هذه الآية » على طريقة القسم للتأكيد ﴿ **ولئن سألتهم** ﴾ عن أقوالهم التى يقولونها نفاقاً من وراء الرسول ، ليقولن إنا كنا غير جادين ومنكرين ، بل هازلين لاعبين ، وهذا كفر محض ، فإن من يهزأ بالله وآياته ورسوله فهو كافر بها .

قل لهم ألم تجدوا ما تستهزئون به فى خوضكم ولعبكم إلا الله وآياته ورسوله ، فقصرتم الهزؤ عليها ، ثم تظنون أن هذا عذر مقبول ، فتتكلمون به بلا حياء ولا خوف . ولكن المنافقين لا يفقهون ﴿ **لا تعتذروا** ﴾ أبداً بهذا أو بغيره ﴿ **قد كفرتم بعد إيمانكم** ﴾ فى الظاهر ، وظهر أمركم ، وبدأ الصبح لذى عينين .

والآية صريحة فى أن الخوض فى كتاب الله ورسوله وصفاته سبحانه وتعالى كفر حقيقى .

﴿ **إن نعف عن طائفة منكم** ﴾ ونقبل توبتها الخالصة ﴿ **نعذب طائفة** ﴾ أخرى لإصرارها على النفاق ، وارتكابها الآثام ، لأنهم كانوا مجرمين .

المنافقون وصفاتهم وجزاؤهم

ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى

خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

المفردات : ﴿ **بخلاقهم** ﴾ : الخلاق النصيب . ﴿ **حبطت** ﴾ : بطلت . ﴿ **المؤتفكات** ﴾ : جمع مؤتفكة من الإتفاك ، وهو الانقلاب والخسف ، والمراد أصحاب قرى قوم لوط . هذا بيان عام لأصل النفاق مع ذكر جزائه فى الدنيا والآخرة ، وضرب الأمثال بحالهم وحال من تقدمهم ، على أن المنافقين فى العصر الإسلامى الأول ضربوا الرقم القياسى فى النفاق .

﴿ **المنافقون والمنافقات بعضهم** ﴾يشبه بعضاً ، وذرية بعضها من بعض ، فهم متشابهون وصفاً وعملاً ، ذكراً وأنثى ، وهذا دليل على تأصل الداء وتمكنه من نفوسهم ، حتى صار كالغرائز الموروثة .

ثم بين الله وجه الشبه فقال : هم يأمرون بكل منكر ، ويدعون إليه ، والمنكر ما أنكره بالطبع السليم ، والعقل الراجح ، وما نهى عنه الشرع الشريف ﴿ **وينهون عن المعروف** ﴾ شرعاً وعقلا وطبعاً ، ألا لعنة الله عليهم .

﴿ **ويقبضون أيديهم** ﴾ عن الإنفاق ، ويبخلون بمالهم عن الجهاد ، وهذا من أهم علامات النفاق ، ولقد ورد فى الحديث : (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان)[1]
وفى رواية « إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » وهكذا النفاق أساس الشر ، وأصل البلاء ، ومجمع كل رذيلة فى الوجود .

﴿ **نسوا الله فنسيهم** ﴾ نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، نسوا التقرب إليه ، ونسوا جلاله وعظمته ، وشرعه وآياته وحسابه وعقابه ، فنسيهم ، وجزاهم على عملهم فحرمهم من حبه وذكره ، والتمتع بدينه وآياته ، والإنفاق فى سبيله ، وحرمهم من الثواب والرضوان ، ﴿ **أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون** ﴾ .

إن المنافقين هم الفاسقون ، الخارجون عن حدود العقل والدين والمصلحة العامة والخاصة ، هم الفاسقون لا غير .

أما ما أعد لهم من عقاب وجزاء فها هو ذا وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار ، وعدهم نار جهنم خالدين فيها ، وفى ذكر الرجال فيهم والنساء دليل على عموم الوصف ، وتأصل الداء ، وتأخير

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان (٢٤) وفى الأدب (٦٩) . ومسلم فى الايمان (١٠٧ ، ١٠٩) . والترمذى فى الايمان (١٤) .

ذكر الكفار ، دليل على أن النفاق أخطر من الكفر الصريح .

ثم لم يكتف بهذا بل زاد فى عقابهم ، والتنكيل بهم ، فقال : ﴿ **هى حسبهم** ﴾ نعم وفى جهنم جزاء يكفيهم عقابا لهم ، ولعنهم فى الدنيا والآخرة ، وطردهم من رحمته وتوفيقه فى الدنيا وفى الآخرة ، لهم العذاب الشديد ، ولهم عذاب مقيم ثابت لا يتحول ولا يزول ، ويظهر ــ والله أعلم ــ أن القرآن يريد أن يوفيهم العذاب الحسى والمعنوى الذى يتكافأ مع نفاقهم وعملهم .

ثم خاطب الله سبحانه المنافقين المعاصرين للنبى ﷺ بعد ذلك بقوله : « أنتم أيها المنافقون الذين آذيتم الله ورسوله والمؤمنين ، كأولئك المنافقين السابقين مع أنبيائهم » .

وهكذا لا يخلو عصر من النفاق ، إذ هو مرض يصيب بعض النفوس ، أنتم مثلهم مغرورون بما لكم ، مفتونون بأولادكم ، ولكنهم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولاداً ، ولم يكن لهم فى دنياهم إلا مطلب واحد هو المتاع الفانى ، والعَرَضَ الزائل ، والتمتع بالمال والولد ، فكان نصيبهم نصيب الحيوان ، يتمتع ويأكل ويتناسل ، فاستمعتم بنصيبكم من المال والولد والعرض الزائل ، كاستمتاعهم بنصيبهم ، لم تفضلوا عليهم بشىء من التمتع بكلام الله المحكم ، الذى نزل على خير الأنبياء ، وسيد المرسلين ﷺ فكنتم أجدر منهم باللائمة ، وأحق بالعذاب والنكال ، فأنتم فعلتم الخبائث كما فعلوا مع توافر دواعى الشر عندهم ، وتوافر دواعى الخير عندكم .

﴿ **وخضتم** ﴾ : فى حمأة الرذيلة والفسق كالخوض الذى خاضوه ، ﴿ **أولئك حبطت أعمالهم** ﴾ فى الدنيا . وفسدت ، لأنها أعمال للرياء والسمعة ، وقد ظهر نفاقهم فيها ، وفى الآخرة لهم العذاب الأليم ، لأن شرط الثواب عليها الإيمان ، وهم لم يؤمنوا حقيقة ، بل نافقوا .

﴿ **وأولئك هم الخاسرون** ﴾ الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، وقد ضل سعيهم فى الدنيا والآخرة . ﴿ **ألم يأتهم نبأ** ﴾ السابقين من قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم إبراهيم ، وأصحاب مدين ، وقوم لوط ؟ والإستفهام للتقرير والتوبيخ .

هؤلاء أتتهم رسلهم بالبينات ، فأعرضوا وكذبوا ، فجاءهم العذاب ، **كالطوفان** الذى أغرق قوم نوح ، والريح التى أهلكت عاداً ، والصيحة التى أبادت ثمود ، والعذاب الذى **هلك** به نمرود ، والخسف الذى نزل بقرى قوم لوط ، وهم فيها .

﴿ **فما كان الله ليظلمهم** ﴾ حينما عذبهم ، وقد أنذرهم ، ومن أنذر فقد أعذر ﴿ **ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ والغرض من ضرب هذا المثل أن يفهم الكفار والمنافقون جيداً أن سنة الله مع الخلق لا تتغير ولا تتبدل ، وأن العذاب سينزل بهم حتماً ﴿ أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر ﴾ فاعتبروا يا أولى الأبصار .

المؤمنون وصفاتهم وجزاؤهم

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

المفردات : ﴿ **أولياء بعض** ﴾ : المراد بالولاية هنا ما يعم النصرة فى الشدائد ، والأخوة والمحبة والمودة . ﴿ **جنات** ﴾ : هى البساتين الكثيرة الأشجار ، الملتفة الأغصان ، التى تستر ما تحتها من الأرض ، ﴿ **وجنات عدن** ﴾ : عدن اسم لمكان خاص فى الجنة كالفردوس . هكذا أسلوب القرآن ، يذكر الشيء ثم يردفه بمقابله ، ليتجلى الفرق ، ويظهر للعيان بأجلى معانيه ، وليعلم المنافقون أنهم ليسوا على شيء من الإيمان ، إذ صفته ما يذكر هنا من إقامة الصلاة والأمر بالمعروف ، أما إيمانهم الظاهر فهو نفاق وخداع لا ينفع أبداً .

﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء** ﴾ بعض بالنصرة والمعونة والمساعدة فى السراء والضراء ، والوقوف بجانب بعض فى الشدائد والمكروه ، بعضهم أولياء بعض ولاية أخوة ومودة ومحبة وصداقة ، فنبيهم ﷺ يقول : (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منهم عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[١] ويقول : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً)[٢] .

هذا هو أساس الإيمان وطبعه ، لا فرق بين ذكر وأنثى ، وقد كانت النساء فى العصر الأول يقمن بالمعونة والنصرة فى الحروب وغيرها ، على قدر طاقتهن ، مع التجمل بالأدب والحياء ولبس لباس الدين والعفاف .

وانظر يا أخى فى وصف المؤمنين ﴿ **بعضهم أولياء بعض** ﴾ وفى وصف المنافقين ﴿ **بعضهم من بعض** ﴾ ترى أن المنافقين لا ولاية بينهم ولا أخوة ، تبلغ درجة الإيثار والنصرة فى الحروب ، ولكنها أخوة كلام فقط ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون * لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ﴾[٣] .

---

(١) أخرجه البخارى فى الأدب (٢٧) . ومسلم فى البر (٦٦) .

(٢) أخرجه البخارى فى الصلاة (٨٨) وفى الأدب (٣٦) وفى المظالم (٥) . ومسلم فى البر (٦٥) . والترمذى فى البر (١٨) . والنسائى فى الزكاة (٦٧) . والإمام أحمد فى (٤ : ١٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٩) .

(٣) الآيتان ١١ ، ١٢ من سورة الحشر .

فالمنافقون بعضهم يشبه بعضاً فى الشك والنفاق والإرتياب ، ولكن لا صلة بينهم ولا تآلف ، إذ الولاية والصلة والأخوة هى من صفات المؤمنين ، أصحاب العقائد الراسخة ، ولذا يقول الله فيهم ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض** ﴾ ولاية النصرة فى الدفاع عن الحق والعدل والكرامة ، والدعوة إلى الله ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر .

وبالعكس : المنافقون يأمرون بالمنكر ، وينهون عن المعروف ، ولا غرابة ، فهاتان الصفتان من أبرز صفات المؤمنين ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾[1] .

﴿ **ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة** ﴾ وهاتان صفتان فى مقابلة وصف المنافقين بأنهم نسوا الله ، وبأنهم يقبضون أيديهم ، وإقامة الصلاة إتيانها مقومة كاملة تامة الأركان والشروط ، فيها الخضوع الكامل والخشوع لله ، ومراقبته وذكره .

أما صلاة المنافقين فللرياء والنفاق ، إذا قاموا إليها قاموا كسالى ، وإتيان الزكاة دليل كمال الإيمان ، والخشية من الله ، والأمل فى رضائه ورضوانه .

وخُصَّ هذان الركنان بالذكر ، لأنهما علاج الهلع والجزع والبخل والخور ، فهذه أمراض تدفع صاحبها إلى الإحجام عن الدفاع عن الحق ، وإعلاء كلمة الله ، وتدفعه إلى الشح الصاد عن الإنفاق ، فى سبيل الله ، ولذا كان المنافقون أجبن الناس ، وأبخلهم انظر إلى قوله تعالى ﴿ إن الانسان خلق هلوعاً * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعاً * إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين فى أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين ﴾[2] .

وقد جعل الله هذه الأربع : الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وإقامة الصلاة ، وإتيان الزكاة . أساس النجاح فى الدنيا ، ووسيلة العمران ، وإقامة الدولة المسلمة الصالحة ، للتمكين فى الأرض ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾[3] والمؤمنون والمؤمنات لهم صفات فوق ذلك ، إنهم يطيعون الله ورسوله بامتثال الأمر ، واجتناب النهى فى كل أمورهم .

﴿ **أولئك سيرحمهم الله** ﴾ ويدخلهم فى رحمته الواسعة التى كتبها لهم ، رحمة خالصة من شوائب الكدر والشقاء ، إن الله عزيز لا يغلب ، حكيم فى كل صنع ، وهذا تذييل مناسب لهذا العطاء الكبير للمؤمنين .

﴿ **وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات** ﴾ جزاءًا لهم ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

وعدهم الله جنات موصوفة بأنها ﴿ **تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ فليس فيها تعب ولا مشقة ولا

(١) الآية ١١٠ من سورة آل عمران . (٢) الآيات ١٩ - ٢٦ من سورة المعارج . (٣) الآية ٤١ من سورة الحج .

عطش ، ولا ألم كما أن مياهها طاهرة نظيفة لا تتغير بالمكث ، ولا تفسد بالوقوف وهم خالدون فيها إلى ما شاء الله ، ومقيمون بها إقامة أبدية ، ووعدهم ﴿ **مساكن طيبة** ﴾ يتمتعون بها مشتملة على جميع المرافق من أثاث ورياش وزينة ورزق ومتاع ، هذه المساكن ﴿ **فى جنات عدن** ﴾ ومكانها الطيب هذا هو المتاع الجسمانى فى الآخرة ، وأما متاع الروح فالرضا والرضوان ﴿ **ورضوان من الله أكبر** ﴾ من ذلك كله إذ لا يقدر قدره ، وقيل إن الرضوان رؤية الله يوم القيامة ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾[1] .

هذا جزاء الإيمان فى مقابلة جزاء النفاق السابق .

ألا بئس ما يصنعون ، ذلك الذى ذكر من الوعد للمؤمنين والمؤمنات بالنعيم الجسمانى والروحانى ، هو الفوز العظيم .

أما المتاع فى الدنيا فعرض زائل ، مشوب بالألم والتعب والهم والنصب .

أيها المؤمنون هذه هى الموازين الحقيقية للإيمان وجزائه ، فانظروا إلى أنفسكم فى أى مكان هى ، وحاسبوها قبل ان تحاسبوا .

معاملة النبى للكفار والمنافقين

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٧٤﴾

المفردات : ﴿ **واغلظ عليهم** ﴾ : الخشونة والشدة فى المعاملة وهى ضد اللين . ﴿ **الجهاد والمجاهدة** ﴾ : استفراغ الجهد والوسع فى مدافعة العدو ، وهو ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهر ، مجاهدة الشيطان ، مجاهدة النفس والهوى ، ويشير إلى هذه كلها قوله تعالى ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده ﴾[2] ﴿ وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ﴾[3] وقال ﷺ : (جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم) . وقال : (جاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم) والجهاد باللسان إقامة الحجة والبرهان ، والجهاد باليد الجهاد بالسيف وكل الوسائل الحربية . ﴿ **ونقم منه الشىء** ﴾ : أنكره وعابه عليه .

(١) الآية ٢٦ من سورة يونس .
(٢) الآية ٧٨ من سورة الحج .
(٣) الآية ٤١ من سورة التوبة .

بعد أن وصف الله تعالى المؤمنين بشريف الصفات ، ووعدهم بأجزل الثواب ، وأرفع الدرجات ، أعاد الكرة إلى تهديد المنافقين وإنذارهم بالجهاد كالكفار المجاهدين بكفرهم ، إذا هم استرسلوا فى إظهار ما ينافى الإسلام من الأموال والأفعال ، كالقول الذى قالوه وأنكروه بعد أن أظهره الله عليه وكذبهم فى إنكارهم ، وجهادهم ألا يعاملوا معاملة المؤمنين الصادقين ، فيقابلونة بالغلظة والتجهم ، لا بالطلاقة والبشر إلى نحو ذلك . ﴿ **يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم** ﴾ .

أى ابذل أيها النبى جهدك فى مقاومة هاتين الطائفتين اللتين تعيشان بين ظهرانيك ، بمثل ما يبذلان من جهد فى عداوتك ، وعاملهما بالغلظة والشدة التى توافق سوء حالهما .

وقد اتفق الأئمة على أن المنافقين يعاملون بأحكام الشريعة كالمسلمين الصادقين ، فلا يقاتلون إلا إذا ارتدوا أو بغوا على جماعة المسلمين بالقوة ، أو امتنعوا من إقامة شعائر الإسلام وأركانه ، وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : جهاد الكفار بالسيف وجهاد المنافقين باللسان : أى بالحجة والبرهان .

وكان الكفار اليهود يؤذون النبى ﷺ حتى بتحريف السلام عليه ، بقولهم : (السام عليكم) والسام الموت ، فيقول : (وعليكم) .

ثم تكرر نقضهم للعهد حتى كان من أمرهم ما تقدم ذكره .

وكان يعامل المنافقين باللطف واللين بناء على حكم الإسلام والظاهر ، فجرأهم هذا على أذاه بنحو قولهم : (هو أذن) فأمره الله فى هذه الآية بالغلظة على الفريقين فى جهاده التأديبى لهم ، لأن أمثالهم لا علاج له إلا هذا كما قال :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف فى موضع الندى

وهو جهاد فيه مشقة عظيمة ، لأنه موقف وسط بين رحمته ، ولينه للمؤمنين المخلصين ، وشدته فى قتاله لأعدائه المحاربين ، يجب فيه إقامة العدل ، واجتناب الظلم ، وأثر عن عمر أنه قال « أذلوهم ولا تظلموهم » .

وفى هذه الغلظة تربية للمنافقين ، وعقوبة لهم ، يرجى أن تكون سببا فى هداية من لم يطبع الكفر على قلبه ، وتحط به خطايا نفاقه ، فتقطيب وجهه ﷺ فى وجوههم تحقير لهم ، يتبعه فيه المؤمنون ، ومن ير أنه محتقر بين قومه وأبناء جنسه من الرئيس وغيره يضيق صدره ،ويحاسِبْ نفسه ، ويثُبْ إلى رشده ، ويتبْ إلى ربه .

وهذه السياسة الحكيمة كانت سبب توبة أكثر المنافقين ، وإسلام ألوف الألوف من الكافرين .

﴿ **ومأواهم جهنم وبئس المصير** ﴾ أى لا مأوى لهم يلجأون إليه ، إلا دار العذاب التى لا يموت من أوى إليها ، ولا يحيا حياة طيبة ، وبئس المصير هى ﴿ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾ .

والخلاصـــة :

أنهم قد اجتمع لهم عذابان : عذاب الدنيا بالجهاد والغلظة . وعذاب الآخرة بأن تكون جهنم مأواهم .

ثم ذكر سبحانه الجرائم الموجبة لجهادهم كالكفار وهى : أنهم أظهروا الكفر بالقول ، وهموا بشر ما يغرى به من الفعل ، وهو الفتك برسول الله ﷺ .

وقد أظهره الله عليه وأنبأه بأنهم سينكرونه إذا سألهم ، ويحلفون على إنكارهم ليصدقهم ، كدأبهم من قبل ، فقد كانوا يحلفون للمؤمنين ليرضوهم كما قال تعالى ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة ﴾[1] ويخوضون فى آيات الله وفى رسوله . استهزاء خرجوا به من الايمان الذى يدعونه إلى الكفر الذى يكتمونه فقال :

﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا ﴾ .

أى يحلفون بالله إنهم ما قالوا تلك الكلمة التى نسبت إليهم ، والله يكذبهم ويثبت أنهم قد قالوا كلمة الكفر التى رويت عنهم ، ولم يذكر القرآن هذه الكلمة ، لأنه لا ينبغى ذكرها ، ولئلا يتعبد المسلمون بتلاوتها ، وأصح ما قيل فيها ما رواه ابن جرير والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ جالساً فى ظل شجرة فقال : إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعينى شيطان فإذا جاء فلا تكلموا ، فلم يلبثوا ان طلع رجل ازرق . فدعاه رسول الله فقال له : علام تشتمنى أنت وأصحابك ، فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا ، فتجاوز عنهم فأنزل الله :

﴿ يحلفون بالله ما قالوا ﴾ .

أما همهم بما لم ينالوا : فهو اغتيال رسول الله ﷺ فى العقبة منصرفه من تبوك ، ذاك أنه لما رجع رسول الله ﷺ قافلا من تبوك إلى المدينة ، حتى إذا كان ببعض الطريق ، مكر برسول الله ﷺ ناس من المنافقين ، فتآمروا ان يطرحوه من عقبة فى الطريق ، فلما بلغوا العقبة أرادوا أن يسلكوها معه ، فلما غشيهم رسول الله ﷺ أخبر خبرهم ، فقال : (من شاء منكم أن يأخذ . ببطن الوادى فإنه أوسع لكم) وأخذ رسول الله ﷺ العقبة وأخذ الناس ببطن الوادى إلا النفر الذين هموا بالمكر برسول الله ﷺ ، فإنهم لما سمعوا بذلك استعدوا وتلثموا ، وقد هموا بأمر عظيم .

وأمر رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر فمشيا معه ، وأمر عمار أن يأخذ زمام الناقة وأمر حذيفة أن يسوقها ، فبينا هم يسيرون إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم قد غشوه ، فغضب رسول الله ﷺ ، وأمر حذيفة أن يردهم ، وأبصر حذيفة غضب رسول الله ﷺ فرجع ، ومعه محجن ، واستقبل وجوه رواحلهم فضربها ضرباً بالمحجن ، وأبصر القوم وهم متلثمون ، ولا يشعر إلا أن ذلك فعل المسافر ، فأرعبهم الله سبحانه حين أبصروا حذيفة ، وظنوا أن مكرهم قد ظهر عليه ، فأسرعوا حتى خالطوا الناس ، وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله ﷺ فلما أدركه قال « اضرب الراحلة يا حذيفة ، وامش أنت يا عمار وراءها » .

(١) الآية ١٦ من سورة المجادلة .

فأسرعوا حتى استووا بأعلاها ، فخرجوا من العقبة ينتظرون الناس ، فقال النبى ﷺ لحذيفة « هل عرفت من هؤلاء الركب أحداً » قال حذيفة : عرفت راحلة فلان وفلان وقال : كانت ظلمة الليل وغشيتهم وهم متلثمون . فقال رسول الله ﷺ « هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا » قال : لا والله يا رسول الله قال « فإنهم مكروا ليسيروا معى حتى إذا طلعت فى العقبة طرحونى منها » قالوا: أو لا تأمر بهم يا رسول الله إذاً فنضرب أعناقهم ؟ قال « أكره أن يتحدث الناس ويقولوا : إن محمداً قد وضع يده فى أصحابه » فسماهم لهما وقال : « أكتماهم » .

والصحيح فى عددهم ما رواه مسلم أن رسول الله ﷺ قال : (فى أمتى اثنا عشر منافقا لا يدخلون الجنة ، ولا يجدون ريحها ، حتى يلج الجمل فى سم الخياط ، ثمانية منهم تكفيهم الدبيلة (خراج ودمل كبير يظهر فى الجوف يقتل صاحبه كثيرا) سراج من النار يظهر فى أكتافهم حتى ينجم من صدورهم).[١]

أى كأنه سراج من النار . ﴿ **وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله** ﴾ أى وما أنكر هؤلاء المنافقون من أمر الإسلام ، وبعثة الرسول ﷺ فيهم شيئاً يقتضى الكراهة والهم بالانتقام إلا إغناء الله تعالى ورسوله من فضله بالغنائم التى هى عندهم أحب الأشياء لديهم فى هذه الحياة، وكانوا كسائر الأنصار فقراء ، فأغناهم الله ببعثة الرسول ونصره ، وبما آتاه من الغنائم كما وعده ، ومن ثم قال ﷺ للأنصار ﴿ وكنتم عالة فأغناكم الله بى) [٢] .

﴿ **فإن يتوبوا يك خيرا لهم** ﴾ أى فإن يتوبوا من النفاق وما يصدر عنه من مساوئ الأقوال والأفعال ، يكن ذلك المتاب خيرا لهم فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فبما فيه من التوكل على الله ، والرضا بقضائه ، والصبر على بلائه ، والعمل لما فيه السعادة فى الآخرة ، ومعاشرة الرسول ﷺ ، ومشاهدة فضائله ، وأخوة المؤمنين بعضهم لبعض وما فيها من الود والوفاء الكامل ، والإيثار على النفس ، إلى نحو ذلك .

وأما فى الآخرة فبما علمت مما وعد الله به المؤمنين من الجنات ، التى تجرى من تحتها الأنهار ، والمساكن الطيبة . ﴿ **وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة** ﴾ أى وإن أعرضوا مما دعوا إليه من التوبة ، وأصروا على النفاق ، وما ينشأ منه من المساوىء الخلقية والنفسية – يعذبهم الله عذابا أليماً فى الدنيا بما يلازم قلوبهم من الخوف والهلع ، كما قال سبحانه ﴿ لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون ﴾[٣] وقال : ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾[٤] فهم فى جزع دائم ، وهم ملازم .

---

(١) أخرجه مسلم فى المنافقين (٩ ، ١٠) .
(٢) أخرجه البخارى فى المغازى (٥٦) . ومسلم فى الزكاة (١٣٩) .
(٣) الآية ٥٧ من سورة التوبة .
(٤) الآية ٤ من سورة المنافقون .

وأما فى الآخرة فحسبك ما تقدم من وعيدهم بتلك النار التى تطلع على الأفئدة .

﴿ وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير ﴾ أى وما لهم فى الأرض كلها من يتولى أمورهم ، ولا من ينصرهم ، ويدافع عنهم ، وإن من خذله الله فلا يقدر أحد أن يجبره .

أما فى الدنيا فقد أغلقت فى وجوههم الأبواب ، فقد خص الله ولاية الأخوة والمودة والنصرة بالمؤمنين والمؤمنات دون المنافقين والمنافقات ، وقد قضى الإسلام على جوار الجاهلية ، وعلى أحلافهم ، من أهل الكتاب فى الحجاز بالقتل والجلاء .

وأما فى الآخرة فقد تظاهرت النصوص على أنه لا ولىّ ولا ظهير للكفار والمنافقين .

خيانة العهد

* وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

هذه الآيات بيان لحال طائفة أخرى من المنافقين ، أغناهم الله بعد فقر وإملاق ، وقد كانوا يلجأون إلى الله وقت البأساء والضراء فيدعونه ويعاهدونه على الشكر له والطاعة لشرعه إذا هو كشف ضرهم ، وأغناهم بعد فقرهم ، فلما استجاب دعاءهم نكصوا على أعقابهم ، وكفروا النعمة ، وهضموا حقوق الخلق – ومثل هؤلاء يوجدون فى كل زمان ومكان .

﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ﴾ .

أى ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله مالاً وثروة ليشكرن له نعمته بالصدقة منها ، وليعملن عمل أهل الصلاح بأموالهم من صلة الرحم به ، والإنفاق فى سبيل الله : كإعداد العدة للجهاد ، وبذل المستطاع لخير الأمة وسعادتها ، بما يرقى بها فى مختلف شئونها .

﴿ فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ﴾ .

أى فلما رزقهم وأعطاهم ما طلبوا – بخلوا بما آتاهم ، وأمسكوه ، فلم يتصدقوا منه بشىء ، وتولوا وانصرفوا عن الاستعانة به على الطاعة ، وإصلاح حالهم وحال أمتهم ، كما عاهدوا الله عليه ، ولم يكن ذلك التولى عارضا طارئا ، بل تولوا بكل ما أوتوا من قوة ، بحافز نفسى ملك عليهم أمرهم ، ومنعهم عن التصدق ، بحيث إذا ذُكِّروا بما يجب عليهم لا يذكرون ، وإذا دُعوا لا يستجيبون .

﴿ فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه ﴾ .

قال الليث : يقال أعقبت فلانا ندامة إذا صيرت عاقبة أمره كذلك كما قال الهذلى :

أودى بنـــى وأعقبـــونى حسرة بعـــد الرقـــاد وعبرة لا تقلـــع

أى أعقبهم ذلك البخل والتولى بعد العهد الموثق بأوكد الأيمان نفاقاً فى قلوبهم ، متمكنا منها وملازما لها إلى يوم الحساب فى الآخرة ، لأنه لا رجاء معه فى التوبة .

ثم ذكر سببين هما من أخص أوصاف المنافقين – إخلاف الوعد ، والكذب فقال : ﴿ **بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون** ﴾ أى أن سنة الله فى البشر قد جرت بأن العمل بما يقتضيه النفاق يمكن النفاق فى القلب ويقويه ، كما أن العمل بمقتضى الإيمان يزيد الإيمان قوة ورسوخاً فى النفس ، وهكذا جميع الأخلاق والعقائد تقوى وترسخ بالعمل الذى يصدر منها .

فهؤلاء لما كان قد رسخ فى نفوسهم خلف الوعد ، واستمراء الكذب ، مكن ذلك النفاق فى قلوبهم بمقتضى سننه وتقديره .

أخرج ابن جرير ، وابن مردويه ، والبيهقى عن ابن عباس فى قوله ﴿ **ومنهم من عاهد الله** ﴾ الآية : أن رجلا من الأنصار يقال له ثعلبة أتى مجلسا فأشهدهم قال : لئن آتانى الله من فضله آتيت كل ذى حق حقه ، وتصدقت ، وجعلت منه للقرابة ، فابتلاه الله ، فآتاه الله من فضله ، فأخلف ما وعده ، فأغضب الله بما وعده ، فقص الله شأنه فى القرآن . ﴿ **ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب** ﴾ .

أى ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يعلنون غير ما يسرون ، ويتناجون فيما بينهم بالإثم والعدوان ولمز الرسول – أن الله يعلم السر الكامن فى أعماق نفوسهم الذى يخصون به من يثقون به ممن هو مشارك لهم فى النفاق ، وأن الله يعلم الغيوب كلها ، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، فكيف يكذبون على الله فيما يعاهدونه به ، وعلى الناس فيما يحلفون عليه باسمه .

من أخلاق المنافقين

ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾

المفردات : ﴿ لمزه ﴾ : عابه . ﴿ **والمطوع** ﴾ : أى المتطوع ، وهو من يؤدى ما يزيد على

الفريضة . ﴿ **والصدقات** ﴾ : واحدها صدقة . ﴿ **والجهد** ﴾ : (بالضم والفتح) . ﴿ **الطاقة** ﴾ : وهى أقصى ما يستطيعه الإنسان . ﴿ **وسخر منه** ﴾ :استهزأ به احتقاراً .

بعد أن ذكر سبحانه بخل المنافقين وشحهم بأموالهم ، حتى بعد أن عاهدوا الله على الصدقة إذا آتاهم من فضله – أردف ذلك ببيان أنهم لم يقتصروا فى جرمهم على هذا الحد ، بل جاوزوا ذلك إلى لمز المؤمنين وذمهم فى صدقاتهم غنيهم وفقيرهم ، وأنهم لهذا قد وصلوا إلى حد لم يعدلهم فيه أدنى حظ من الإسلام ، ولا أدنى نفع من استغفار الرسول ودعائه لهم ، لرسوخهم فى الكفر بالله ورسوله ، وعدم الرجاء فى إيمانهم .

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى مسعود البدرى قال : لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل (يحمل بعضنا لبعض بالأجر) فجاء أبو عقيل (اسمه الحبحاح) بنصف صاع وجاء إنسان بأكثر منه ، فقال المنافقون : إن الله غنى عن صدقة هذا ، وما فعل الآخر هذا إلا رياءاً ، فنزلت ﴿ **الذين يلمزون** ﴾[1]

وروى ابن جرير عن عكرمة قال : (حث رسول الله ﷺ على الصدقة فى غزوة تبوك ، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف ، وقال : يا رسول الله مالى ثمانية آلاف جئتك بنصفها وأمسكت نصفها فقال : « بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت » وتصدق يومئذ عاصم بن عدى بمائة وسق ثلاثمائة وعشرين رطلا من تمر وجاء أبو عقيل بصاع من تمر) الحديث .

﴿ **الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات** ﴾ .

أى أولئك هم الذين يلمزون المتطوعين من المؤمنين ويعيبونهم فى أمر الصدقات التى هى أظهر آيات الإيمان ، ويذمونهم فى أكمل فضائلهم ، ويقولون ما فعلوها لوجه الله ، وإنما فعلوها رئاء الناس .

فلمزهم هنا فى مقدارها وصفة أدائها لا فيها نفسها ، واللمز هناك فى قسمتها ، وقد جاء فى بعض الروايات (أن النبى ﷺ حث على الصدقة فجاء عمر بصدقة وجاء عثمان بصدقة عظيمة ، وكثير من أصحابه بصدقات فقال المنافقون : ما أخرج هؤلاء صدقاتهم إلا رياء ، وأما أبو عقيل فإنما جاء بصاعه ليذكر بنفسه) .

﴿ **والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم** ﴾ .

أى ويلمزون الذين لا يجدون إلا جهدهم : أى الفقراء الذين تصدقوا بقليل ، هو مبلغ جهدهم ، وآخر طاقتهم ، فيستهزئون بهم احتقاراً لما جاءوا به وعدًّا له من الحماقة والجنون .

وخص هؤلاء بالذكر وإن كانوا داخلين فى المتطوعين ، لأن مجال لمزهم عند المنافقين أوسع ، والسخرية منهم أشد ، وهم أهل الإجلال والإكبار والأحق بالثناء .

(١) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ٩ : ١١) .

﴿ سخر الله منهم ﴾ أى فجازاهم الله بمثل ذنبهم ، فجعلهم سخرية للمؤمنين وللناس أجمعين بفضيحتهم فى هذه السورة ، ببيان مخازيهم وعيوبهم .

﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ تقدم بيانه فى هذه السورة بهذا اللفظ وغيره .

ثم بين سبحانه عقابهم وسواهم بالكافرين فقال :

﴿ **استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** ﴾ .

أى إن تدع هؤلاء المنافقين ، وتسأل الله أن يستر عليهم ذنوبهم بالعفو عنها ، وترك فضيحتهم بها ، أولا تدع ، فلن يستر الله عليهم ولن يعفو عنهم ، ولكنه يفضحهم على رءوس الأشهاد يوم القيامة .

ويراد بالسبعين فى مثل هذا الأسلوب الكثرة لا العدد المعين ، فالمراد أنك مهما أكثرت من الإستغفار لهم فلن يستجاب لك فيهم ، وقد كان ﷺ يستغفر لهم رجاء أن يهديهم الله فيتوب عليهم ويغفر لهم ، كما كان يدعو للمشركين كلما اشتد إيذاؤهم له ويقول : (اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون)[1] رواه ابن ماجه . ﴿ **وذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله** ﴾ .

أى من أجل جحودهم وحدانية الله ، وعدم إيقانهم بما وصف به تعالى نفسه من العلم بالسر والنجوى ، وسائر الغيوب ، وجحودهم وحيه لرسوله ﷺ ، وبما أوجبه من اتباعه ، وجحودهم بعثه للموتى ، وجزائهم على أعمالهم — لم يعف عن ذنوبهم ولا عما دسوا به أنفسهم من الآثام والمعاصى . ﴿ **والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾ .

أى إن سنة الله قد جرت فيمن أصروا على فسوقهم ، وتمردوا فى نفاقهم ، وأحاطت بهم خطاياهم أن يفقدوا الإستعداد للتوبة والإيمان ، فلا يهتدون إليهما سبيلا .

المتخلفون عن الجهاد

فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

﴿ **فرح** ﴾ : الفرح شعور النفس بالارتياح والسرور . ﴿ **المخلفون** ﴾ : الذين تركهم رسول الله عند خروجه إلى غزوة تبوك . ﴿ **خلاف** ﴾ : مصدر كالمخالفة وقد يراد به معنى (بعد وخلف) فيكون ظرفاً ويصح المعنيان هنا .

(١) أخرجه البخارى فى الأنبياء (٥٤) وفى المرتدين (٥) . ومسلم فى الجهاد (١٠٤) . وابن ماجه فى الفتن(٢٣) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٨٠ ، ٤٢٧ ، ٤٣٢ ، ٤٤١ ، ٤٥٣ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧) .

هذه الآيات فى بيان حال المتخلفين عن القتال ، وما يجب من معاملتهم وقد نزلت فى أثناء السفر ، ولازلنا فى الكلام على المنافقين وصفاتهم وأعمالهم فى غزوة تبوك .

فرح المتخلفون من هؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله عند خروجه إلى غزوة تبوك ، وقعدوا فى بيوتهم مخالفين أمر رسول الله ﷺ ، قعدوا لأنهم لا يؤمنون أن فى الغزو خيراً ، وامتثالاً لأمر ربهم ورسوله ، وقالوا لإخوانهم ﴿ **لا تنفروا فى الحر** ﴾ وتتركوا مهام أعمالكم ومصالحكم .

قل لهم يا محمد : نار جهنم التى أعدت للمخالفين العصاة أشد حراً ، فهى تلفح الوجوه ، وتنضج الجلود وتنزعها ، ولو كانوا يفقهون ذلك ، ويعتبرون ، لما خالفوا وعصوا ، وآثروا راحة الجسم راحة قليلة على هذا العذاب الدائم ، والنار التى أعدت لهم ، وكان وقودها الناس والحجارة ، فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً ، ليس هذا أمراً حقيقياً . بل يراد تهديدهم .

وبيان أن هذا هو الأجدر بهم على حسب حالهم ، وما تستوجبه أعمالهم ، إذ لو كانوا يفقهون خطر ما فاتهم من أجر ، وما سيلاقيهم من عذاب وخيم ، لضحكوا قليلاً ولبكوا كثيراً ، وهذا جزاء لهم بما كانوا يعملون ، ويكسبون من الجرائم ، ويقترحون من الآراء .

كيف عامل النبى ﷺ زعماء النفاق

فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

المفردات : ﴿ **الخالفين** ﴾ : المراد المتخلفون من النساء والصبيان على أن الخالف قد يستعمل ويراد به من لا خير فيه ولا غناء معه .

هذه الآية الكريمة نزلت فى سفره ﷺ وهو راجع من غزوة تبوك ، وهى من دقائق القرآن ، لأن أئمة الحديث ذكروا فى الصحيحين أحاديث تتعارض معها ، مثل حديث صلاة النبى ﷺ على عبد الله ابن أبى زعيم المنافقين،ولكن أليس من الخير أن نسير مع القرآن الكريم ؟ فإنه أضبط متنا وسندا ، بل هو المحفوظ الذى تكفل الله بحفظه ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ .

وقد جمع بعض العلماء فى الكتب المطوله بين الحديث والآية .

قد تخلف المتخلفون عن رسول الله ، وفرحوا بمقعدهم مخالفين لأمر الله ورسوله ، وكرهوا الجهاد ، بل وثبطوا عنه وخذلوا غيرهم ، بقولهم ﴿ **لا تنفروا فى الحر** ﴾ فترتب على هذا كله ما هنا من المعاملة القاسية الشديدة . ﴿ **فإن رجعك الله** ﴾ وردك من سفرك ﴿ **إلى طائفة** ﴾ وجماعة خاصة من المتخلفين ، تلك الطائفة هم المنافقون الذين سبق ذكرهم ﴿ **فاستأذنوك للخروج** ﴾ أيا كان نوعه فقل لهم ﴿ **لن تخرجوا معى أبداً** ﴾ على أى شكل كان ، وبأى وضع (ولن تقاتلوا معى عدواً) أبداً فى المستقبل بأى كيفية كانت !! وذلك لأنكم ﴿ **رضيتم بالقعود أول مرة** ﴾ وتخلفتم بلا عذر ، وحنثتم فى أيمانكم الفاجرة وفرحتم بالقعود ، بل وتبطتم عن الجهاد .. ﴿ **فاقعدوا مع الخالفين** ﴾ المسيئين الذين لا خير فيهم أبداً ، ولن تنالوا شرف الصحبة والجهاد ، فهذا شرف رفيع ، ووسام عال ، لا يناله إلا المؤمنون المخلصون .

﴿ **ولا تصل على أحد منهم مات أبداً** ﴾ فى المستقبل ﴿ **ولا تقم على قبره** ﴾ أبداً داعياً له ومستغفرا وقد سبق قوله تعالى : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة على المنافقين ، والقيام على قبورهم ، وأن يدعو لهم كما كان يفعل إذا مات مؤمن بعد دفنه : (استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل)[١] . وقد نص الفقهاء على العمل بهذا الحديث ..

وهذا يعارض ما نعلمه من أن المنافقين كان النبى ﷺ يجرى عليهم أحكام الإسلام العامة ، والجواب كما ظهر لى – والله أعلم – أن هذه الآيات نزلت فى زعماء النفاق الذين علم الله أنهم لا خير فيهم أبداً ، وهم سيموتون على الشرك والنفاق ، وعدم التوبة ، وقد أعلم الله نبيه بهم كما فى الحديث ، وأما غيرهم فكان يدعو لهم رجاء التوبة والتوفيق ، وبعضهم آمن وتاب .

قال الواقدى : أنبأنا معمر عن الزهرى قال : قال حذيفة قال لى رسول الله ﷺ (إنى مسر إليك سراً فلا تذكره لأحد : إنى نهيت أن أصلى على فلان وفلان) رهط ذوى عدد من المنافقين : قال : فلذلك كان عمر إذا أراد أن يصلى على أحد استتبع حذيفة ، فإن مشى مشى معه ، وإلا لم يصل عليه .

ولعل الحكمة فى خصوص هؤلاء أن الله علم أنهم ماتوا على الكفر ، أو سيموتون عليه ، فلا تنفعهم شفاعة ولا استغفار ولا صلاة أبداً ، ولذلك كان تعليل النهى لا تصل على أحد منهم مات لأنهم ﴿ **كفروا بالله و رسوله وماتوا وهم فاسقون * ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾ .

وقد تقدم مثل هذا مع فارق هو ذكر لا فى الآية السابقة ﴿ ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ﴾ وهو يصدق بالنهى عن الإعجاب بكل منهما ، وفى الآية الكريمة هنا حذف لا ، فيفيد الكلام النهى عن الإعجاب بهما مجتمعين ، ولكل كلمة مع صاحبها مقام يقتضيه الحال ، والله أعلم بكتابه .

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز (٦٠) وفى مناقب الأنصار (٣٨) . ومسلم فى الجنائز (٦٤) . وأبو داود فى الجنائز (٦٩) . والنسائى فى الجنائز (٢٧ ، ١٠٣) . والامام أحمد فى (٢ : ٥٣٩) .

موقف المنافقين من الجهاد

وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

المفردات : ﴿ **الطول** ﴾ : الغنى والمقدرة والمراد أولوا المقدرة على الجهاد المفروض . ﴿ **ذرنا** ﴾ : اتركنا . ﴿ **القاعدين** ﴾ : المراد مع المتخلفين .

هذه عادة المنافقين ومن فى قلوبهم مرض الشك والنفاق ، كلما أنزلت سورة تدعو الناس ببعض آياتها إلى الإيمان بالله والجهاد مع رسول الله ﷺ استأذنك أولوا المقدرة على الجهاد بالمال والنفس ، استأذنوك فى التخلف ، منتحلين شتى الأعذار قائلين اتركنا مع القاعدين من النساء والصبيان والعجزة ، هؤلاء رضوا بأن يكونوا مع المتخلفين من النساء والصبيان والعجزة ، وطبع على قلوبهم فلم يعد يدخل إليها نور العلم والوعد ، والهداية والنور ، حتى كأنها قد ختمت عليها .

ولا غرابة فى ذلك ، فهم قوم لا يفقهون الخير والرشد حتى يهتدوا إليه ، لكن الرسول والذين آمنوا معه بمقتضى إيمانهم الخالص الراسخ فى قلوبهم جاهدوا فى سبيل الله ، وبذلوا النفس والنفيس ، طيبة قلوبهم ، مستريحة ضمائرهم ، متهللة وجوههم بشراً وسروراً ، لأنهم وجدوا الفرصة سانحة لاقتناص ثواب الجهاد فى سبيل الله .

وأولئك البعيدون فى درجات الكمال والجلال ، لهم الخيرات التى لا يعلمها إلا الله فى الدنيا ، كشرف النصر ، ومحو الكفر ، والتمتع بالغنيمة ، والسيادة فى الأرض ، وأولئك هم المفلحون السعداء ﴿ **أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم** ﴾ .

المتخلفون من الأعراب

وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

وجاء المعتذرون من الأعراب ليأذن لهم النبى ﷺ فى التخلف عن النفير العام فى غزوة تبوك ، وهم قوم عامر بن الطفيل ، جاءوا يقولون يا رسول الله إن نحن غزونا تغير علينا أعراب طىء فقال لهم

رسول الله : (قد أنبأنى الله من أخباركم وسيغنى الله عنكم) .

وقال ابن عباس هم قوم تخلفوا ، فأذن لهم النبى ﷺ والظاهر أن عذرهم كان حقا ، والآية تحتمل هذا وذاك .

وقعد عن القتال وعن المجيء للاعتذار الذين كذبوا الله ورسوله من الأعراب ، وأظهروا الإيمان بهما كذبا وإبهاماً ، وهؤلاء المنافقون حقيقة فى العقيدة ، وقد قعدوا عن القتال بجرأة على الله وعلى رسوله ﴿ **سيصيب الذين كفروا منهم** ﴾ أى ممن كذبوا الله ورسوله ، ومن المعتذرين بغير عذر شرعى ، سيصيب هؤلاء ﴿ **عذاب أليم** ﴾ غاية الألم .

الضعفاء والمرضى

لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾

المفردات : ﴿ **الضعفاء** ﴾ : جمع ضعيف وهو ضد القوى والمراد من لا قوة لهم فى أبدانهم تمكنهم من الجهاد . ﴿ **حرج** ﴾ : المراد ليس عليهم ذنب ولا إثم . ﴿ **نصحوا** ﴾ : أخلصوا لله ورسوله فى القول والعمل . ﴿ **من سبيل** ﴾ : من طريق يسلك لمؤاخذتهم .

لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ولا يطلب منها ما هو فوق طاقتها ، وعلى ذلك فكل من عجز عن شيء سقط عنه ولا يكلف به ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج ولا على المريض حرج ﴾[1] .

وروى أبو داود عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : (لقد تركتم بالمدينة أقواما ما سرتم سيراً ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه . قال : يا رسول الله وكيف يكونون معناوهم بالمدينة . قال : حبسهم العذر)[2] .

ألست معى فى أن هذة الآية وأشباهها من القرآن والحديث بينت أنه لا حرج على المعذورين عذراً شرعياً ، وهم قوم عرف عذرهم كالشيوخ والعجائز ، وأهل الزمانة والهرم ، والعمى والعرج ، وأقوام لم يجدوا ما ينفقون ، فكل هؤلاء ليس عليهم ذنب ولا إثم ، إذا نصحوا لله ورسوله، وأخلصوا لها النية ، وأحسنوا الطوية ، وعرفوا الحق سبحانه وتعالى وأحبوه ، وأحبوا أولياءه ، وبغضوا أعداءه .

(١) الآية ٦١ من سورة النور ، والآية ١٧ من سورة الفتح .

(٢) أخرجه البخارى فى الجهاد (٣٥) وفى المغازى (٨١) . وأبو داود فى الجهاد (١٩) . وابن ماجه فى الجهاد (٦) . والإمام أحمد فى (٣ : ١٠٣ ، ١٦٠ ، ١٨٢ ، ٢١٤ ، ٣٠٠ ، ٣٤١) .

والنصيحة الخاصة لله ولرسوله (فى هذه الحال الحربية) هى عمل كل ما فيه المصلحة العامة للأمة ، من كتمان السر ، والحث على البر ، وإلهاب الشعور ، وتوحيد الصفوف ، ومحاربة الخائنين ، والقضاء على الطابور الخامس .

روى عن تميم الدارى أن رسول الله ﷺ قال : (الدين النصيحة ثلاثا قلنا : لمن يا رسول الله ﷺ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)[1] .

قال العلماء النصيحة لله إخلاص الإعتقاد فى الوحدانية ، ووصفه بكل كمال وتنزيهه عن كل نقص . وامتثال أمره واجتناب نهيه .

والنصيحة لرسوله التصديق بنبوته ، والتزام طاعته فى أمره ونهيه ، وحبه وحب آل بيته ، ومن سار بسيرته ، وإحياء سنته بالمدارسة والتفقه والعمل بها ، والدفاع عنها .

والنصيحة لكتابة قراءته ، والتفقه فيه ومدارسته والتخلق به ، والدفاع عنه .

والنصيحة لرسوله التصديق بنبوته ، والتزام طاعته فى أمره ونهيه ، وحبه وحب من أحبه وحب آل بيته ، ومن سار بسيرته ، وإحياء سنته بالمدارسة والتفقه والعمل بها ، والدفاع عنها .

والنصح لعامة المسلمين إرشادهم إلى الطريق الحق ، والإرعاء عليهم ، وحب الخير لهم ، والسهر على مصالحهم كل على قدر طاقته .

﴿ **ما على المحسنين من سبيل** ﴾ على معنى ليس هناك سبيل يسلكها ناقد على من أحسن العمل ، وأخلص النية ، فكل عمل تعمله وأنت ترضى ربك فأنت محسن ، والله يجازى المحسن بمضاعفة حسنته ، والمسىء بقدر إساءته ،فإذا كان هؤلاء المعذورون عذراً شرعياً قد نصحوا لله ورسوله ، وأخلصوا فى أعمالهم ، فليس لأحد عليهم سبيل ، ما داموا محسنين أعمالهم ، والله غفور رحيم .

روى أن بنى مقرن كانوا سبعة أخوة من أصحاب رسول الله ﷺ وقد هاجروا وأتوا رسول الله فى غزوة تبوك ليحملهم ، فلم يجد ما يحملهم عليه ، فتولوا وأعينهم تفيض مع الدموع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون !! وهذه الآية هى التى نزلت فى شأنهم ﴿ **ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون** ﴾ .

ولعل الحكمة فى التعبير بالإتيان لأجل الحمل ، والاعتذار عنه بعدم وجدان ما يحمل عليه من دابة أو غيرها ، هى افادة العموم ، ليشمل الدابة والسيارة والطيارة وغيرها . والله أعلم .

(١) أخرجه البخارى فى الايمان (٤٣) . ومسلم فى الإيمان (٩٥) . وأبو داود فى الأدب (٥٩) . والترمذى فى البر (١٧) . والنسائى فى البيعة (٣١ ، ٤١) . والدرامى فى الرقاق (٤١) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٥١) وفى (٢ : ٢٩٧) وفى (٤ : ١٠٢ ، ١٠٣) .